محمد إبراهيم سليم

المروءة الغائبة

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

السـؤال المحَيِّر !!

رأيت فيما يرى النائم أن ساعى البريد طرق بابى وبيده رسائل ضلت طريقها الى أصحابها « ولم يستدل لهم على عنوان ! » ولقد أفرد « سبعا » منها داخل لفافة كبيرة وراح يسألنى عن صاحبتها قائلا :

« أتعرف المروءة ؟! »

وحرت فى أمرى !! ماذا أقول له ؟

أأقول كنت أعرفها ، ولكنها فى السنوات الأخيرة حزمت أمتعتها وقالت : « إنى راحلة » وخرجت ذات يوم ولم تعد عندما لم يعجبها الحال المائل !! أم أقول إننى لا أعرفها !!

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفَا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر !!

وكأنما أدرك « ساعى البريد » حيرتى !! ، وما أعانيه من غيابها فى شيخوختى !! فقال على الفور : « لا عليك ... » خذ هذه الرسائل ، وتولّ عنى أمر تسليمها الى صاحبتها فقد كنتَ لها ذات يوم أهلاً كما أخبرنى سكان الحى !

وأفقت على قول ساعى البريد :

« لقد كنت لها ذات يوم أهلاً !! »

وتراءت لعينيَّ صور الماضى منذ أكثر من نصف قرن ، حيث كانت طفولتنا فى القرية المصرية يباركها الآباء والجدود ، ويهتفون من أعماقهم « عاشت المروءة ياشباب » !! وكم كان يسعدنا أن نحذو حذو شباب القرية .. نترسم خطاهم .. فى كل صور المروءة ومظاهرها الصادقة !! فلقد كان يعجبنا فيهم تلك المبادرات المشكورة عندما يشب حريق أو يتعالى صوت غريق ، أو يقبل وقت البذار والغراس أو الجنى والحصاد ، أو تدعو الحاجة الى إقامة جسور أو ردم برك .. أو بناء بيت .. تراهم هناك يبذلون من ذات أنفسهم .. يبذرون الحَبَّ وينتظرون الثمار من الرب .. يعاونون ويساعدون على بركة الله .. وعيون الكبار عليهم مفتوحة .. والدعوات الحلوة تبارك خطاهم ، وكلمات التشجيع تملأ نفوسهم بالثقة والارتياح .. « فى أمان الله » ... « على بركة الله » « أول همة ياشباب » « تصحبكم السلامة » .. « عاشت المروءة » .

وكم كان يحلو لنا — نحن الصغار — آنذاك أن نندس بين الشباب لنصبح شبابا قبل الأوان !! فيالها من سعادة غامرة تلك التى كنا نستشعرها فى أعماقنا حين نسهم معهم بشىء .. وكنا نعود وفى آذاننا أصداء تلك الكلمات الحلوة وكأنما لنا شىء منها !! والحق أن كبار القرية كانوا يتعهدون شبابها ، ويتابعونهم فى شتى المواقف والمشاهد ، فلا يمرون عليهم فى موقف من تلك المواقف إلا ويتساءلون :

« ابن من هذا ؟ »

ثم يعلقون على مسمع ومرأى من الجميع : « بارك الله فيه » نعم « الولد سر أبيه » .. « من شابه أبه فما ظلم » .. كان ذلك بالضبط « عملية تقييم » تقوم بها « لجنة تحكيم » على أعلى مستوى فى القرية نصبت نفسها بحكم واجبها ومسئوليتها وكان الآباء والأمهات ينتظرون قرارها بل ويعملون لهذا القرار ألف حساب !! ويظل أهل القرية يتناقلون تلك الأحكام حتى تبلغ مسامع الآباء والأمهات ، وعندئذ فقط يعرفون أنهم قد أنجبوا .. أو لم ينجبوا !! وكنا — نحن الأبناء — حريصين على هذه المنزلة .. لا نفرط فيها .. بل ننميها .. فياويل من

رسب فى أعين القرية .. فافتقد الهمة والعزيمة و تجرد من الشهامة والمروءة .. بل يا خزى أبويه !!

فإذا تخاذل أحدهم عن أداء واجب ، أو تراخى عن النجدة سمع نساء الحى يقلن له : أليس عندك مروءة ؟ ! أليس عندك شهامة ؟ ! ألا تعرف الواجب ؟ ! كيف نقابل الناس ؟ وبأى وجه ؟ وماذا نقول لهم ؟ ! فمن فقد مروءته يسقط فى أعين الناس ويُسقِطونه من حسابهم ويتبرأ منه الأهل ، ويصبح غريبا .. لا يجالسه شباب القرية ولا يماشونه !! أليس فاقد الهمة ؟ ! أليس ضعيف العزيمة ؟ ! أليس ناقص المروءة والشهامة والرجولة ؟ ! فيالها من مدرسة فريدة تلك التى يتخرج فيها أبناء المروءة وأهلها !! لقد كان أهلونا ينشدون « كمال الانسانية » وكان لهم ما أرادوا .... وكبرنا وكبرت معنا تلك العادات التى تلقيناها عن الكبار فى القرية ونمت فينا تلك القيم التى غرسها أهلونا وسهروا على رعايتها وحمايتها . « فى مدرسة المروءة » .

حتى اذا انتقلنا الى المدينة لطلب العلم فى الثلاثينيات رحنا نتصرف على طبيعتنا وفطرتنا وسجيتنا .. فقد همسوا فى آذاننا قبل أن نودع القرية لطلب العلم :

« أن الأدب فضَّلوه على العِلْم »

وتمر الأيام ، وتجذبنا المدينة ، وتشدنا إليها .. وتطول رحلتنا فى طلب العلم .. ونعود إلى القرية بعد رحلتنا .. فإذا هى قد تخلت عن ملامحها وقيمها ... وراحت تلتقى مع المدينة فى منتصف الطريق .. وزحف أبناؤها الى المدينة .. وزحفت المدينة عليها فتلاقيا .. وتشابها فتشاكل الأمر ، فإذا هى غريبة الوجه واليد واللسان .. لقد أنكرناها حين عدنا .. بل أنكرتنا .. ووجدنا أنفسنا فى قريتنا بعد أن خلعنا جذورنا منها ... كالغرباء !! ورحنا نبحث عن المروءة ... لقد أصبحت فى خبر كان وعرجنا على « أهل المروءة » من الآباء والاجداد نزور قبورهم ونترحم على أرواحهم .. وعدنا وفى آذاننا أصداء كلماتهم الأولى :

عاشت المروءة .. عاشت الشهامة .. عاشت الهمة نعم عدنا بقلوب جريحة .. وبنفوس كسيرة الى المدينة لنجد الآباء والمربين يدقون ناقوس الخطر .. ويلتمسون انقاذ الأبناء والبنات مما يتهددهم من أخلاقيات وافدة !! وتمر الأيام والأعوام ، ويتم تعديل المناهج أو تغييرها وتستبدل نظريات التربية بأخرى ، وتُجرى تجارب فى مجال إعداد الشباب وتربيته ، وبذل الجهد لتكوين قيم إيجابية مرغوبة يمكن أن تُكَوِّن الانسان القادر على المشاركة الفعالة رغبة فى حياة أفضل ، ومستقبل أجمل !!

ومع أن إعداد الشباب لم يشغل الأذهان كما يشغلها الآن حيث أصبح مجال بحث دائب من علماء النفس ، ورجال التربية وغيرهم من رواد الفكر والسياسة والاجتماع ، إلا أنهم بعد هذا الشوط الطويل الذى قطعوه ، ومع التدرج فى « السلم التعليمى » الذى صعدوه راحوا يفتقدون قيمة عزيزة عليهم ، غابت وطال غيابها فى ظل تلك « النظريات المستوردة » فتركت فراغا لم تستطع تجاربهم ونظرياتهم أن تسده .. وكأنى بهم بعد هذه الرحلة الطويلة يتساءلون ـــ أين المروءة ؟ ! وهل فيكم من يعرفها ؟ إنهم يريدون أن يعود أبناؤنا الى قيمنا وآدابنا الإسلامية يريدون أن يرتفع فى أعماقنا بنيان الإنسان الذى تهدم ، ويحيا فى داخلنا الإنسان الذى تحطم .

يريدون أن تعود المروءة الغائبة إلى كل بيت فيصبح كل منا نحن الكبار أبا للمروءة بعد أن كان أخا لها يريدون أن نلتقى حول رايتها فى مدارسنا ومعاهدنا ودواويننا وأنديتنا وشوارعنا .. ومتاجرنا وأسواقنا ومواصلاتنا وملاهينا حتى يفهم المسلم ذاته ، ويوفق فى فهمه لإسلامه وقيمه ، وتوظيف طاقاته وقدراته فى خدمة الدين ومتطلبات أمتنا الاسلامية على أن تتعاون كل الأجهزة التى يهمها الأمر بتقديم السلوك السوى والقدوة الحسنة ، والنموذج الصالح للمحاكاة والتقليد « وكأنهم مدرسة للمروءة » .

والأمر جدير بالاعداد والاستعداد كما يقول شيخ الأزهر السابق محمد الخضر حسين فى إحدى رسائله الاصلاحية عن المروءة : « وتنتظم المروءة

أخلاقا سنية ، وآدبا مضيئة .. ورسوخ هذه الأخلاق والآداب فى النفس ، يحتاج الى صبر ومجاهدة ، ودقة ملاحظة ، وسلامة ذوق .

فحقيق بنا أن نربى أبناءنا على رعايتها ، منذ عهد التمييز ، حتى لا تسبق إليهم أخلاق غير نقية ، وعادات غير رضية ، فتحول بينهم وبين الفضائل ، فلا تجد المروءة الى نفوسهم مدخلا :

اذا المرء أعيتـــــه المروءة ناشئـــــا فمطـــلبها كهــــلا عليـــــه عسير

نربى أبناءنا على ما يثبت قواعد المروءة ، ويرفع بناءها ، ليحمدوا أبوتنا ، ويكونوا قرةَ أعينٍ لنا ، وأسوةً حسنةً لأحفادنا ، وزينةً لأوطاننا .

وليفوزوا بالعزة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة » وعند ذلك لا نجد من يسأل ذلك السؤال المحير :

هل تعرف المروءة ؟!!

ويصبح كل بيت من بيوتنا عنوانا لها ، فلا تضل رسائلها طريقها !!

لقد كانت بيوتنا ــ فيما مضى ــ عنوانا للمروءة .. وعلى أرض الاسلام الواسعة الممتدة كنت تجد أهلها أنى اتجهت وحيثما سرت ولا أجد على شفتى ما أتحدث به عن « مروءة بلاد الإسلام » خيرا من تلك الكلمات التى قالها « وحيد الدين خان » فى كتابه البعث الاسلامى : « إن هؤلاء الذين نشئوا فى جزيرة العرب ، وشبوا فى الكثبان الرملية ، والصحارى القاحلة الجدباء ، كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هي

« المـــــروءة »

ومعنى المروءة الشهامة والرجولة ، وهى كلمة كانت تستعمل لاظهار جوهر الانسانية عند العرب .

يقول شاعرهم :

اذا المرء أعيتـــــه المروءة ناشئـــــا فمطـلبها ــ كهـلا ــ عليـه شديـــد

ثم يقول : وقد درس المؤرخ « فيليب حتى » تاريخ العرب دراسة مستفيضة ومن حصاد دراسته يقول : « إن القوم الذين أُخْرجوا إلى الوجود فى هذه القرون كانوا قوما عجبا من أقوام هذه الدنيا ، وكانوا يتسمون بالميزات والمواهب التى من أهمها :

الهمة والصبر والمثابرة والجَلَد ومراعاة حقوق الجيران والرجولة والشهامة والسخاء ، وقِرى الضيف[1] واحترام النساء والوفاء بالوعد .

تُرى أين نحن الآن من تلك السمات ؟ سمات أمتنا .. روح وجودنا .. وسر تقدمنا وعنوان إسلامنا ؟ ! « المروءة !! » وهل لنا .. ولها من عودة ؟ من أجل أبنائنا وبناتنا .. وأجيال جاءت فى غيبتها لعلَّ وعسى !! ومن يدرى ؟ !

فقد يجمع الله بين الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

إن هذا الوضع الأخلاقى المتردى — فى غيبة المروءة — ينذر بمزيد من الخطر ، ويهدد بالانهيار والدمار !! ولقد تصدى شاعر النيل حافظ إبراهيم لهذه الظاهرة منذ سنوات وسنوات فشخص الداء ، ووصف الدواء !! فهل يعود إلى قلوبنا الأمل والرجاء ؟ !! لن أقول ما قاله الكواكبى يائسا :

تعب الفيلسُوف فى الناسِ عصرا وتولى السرائر الدينُ دهراً فمن يسمع ؟ ومن يقرأ ؟ .

ولكنى أردد مع حافظ إبراهيم :

إنى لتطربنى الخلال كريمة   طرب الغريب بأوبةٍ وتلاق
وتهزنى ذكرى المروءة والندى   بين الشمائل هِزَّةَ المشتاق

فتعال إلى محراب الشعر الأخلاقى بين يدى شاعر النيل فى ذكرى « المروءة والندى » لنعرف كم يجنى فاقدو المروءة على مجتمعاتهم ؟ وما علة تلك النكسة التى نعيشها ؟ وهذا الاخفاق الذى نجتره صبحا ومساء ؟ !!

---

(١) القرى بكسر القاف ما يقدم للضيف من طعام .

في ذكرى المروءة !!

إنى لَتطْرِبُنى الخِلالُ كريمةً
طَرَبَ الغريبِ بأوْبةٍ وتَلاقِي
وتَهُزُّنى ذِكْرى المروءَة والنَّدَى
بينَ الشَّمَائِلِ هزَّةَ المشْتَاقِ

شاعر النيل

حافظ ابراهيم

١٩١٠ م

الداءُ والدواء

فى ذلك الحفل الذى أقيم ببورسعيد عام ١٩١٠ لاعانة مدرسة للبنات وقف شاعر النيل حافظ ابراهيم ينشد قصيدته التى وضع فيها النقط على الحروف .. شخص الداء ووصف لنا الدواء عندما راح يُنْشِد :

إنى لَتُطْرِبنى الخلالُ كريمةً ... طَرَبَ الغريبِ بأوبةٍ وتلاقى
وتهزُّنى ذكرى المروءةِ والندى ... بين الشمائلِ هِزَّةَ المشتاقِ
فإذا رُزِقتَ خليقةً محمودةً ... فقد اصطفاكَ مُقَسِّمُ الأرزاقِ[1]
فالناسُ هذا حظُّهُ مالٌ ، وذا ... عِلْمٌ وذاك مكارمُ الأخلاقِ
والمالُ إن لَمْ تَدَّخِرْه مُحصَّناً ... بالعِلْمِ كان نهايةَ الإملاقِ[2]
والعِلْمِ إن لَمْ تكتَنِفْه شمائِلٌ ... تُعليه كان مطيةَ الإخفاقِ[3]
لا تحسَبَنَّ العِلْمَ ينفَعُ وحدَه ... مالَمْ يُتَوَّجْ ربُّهُ بخلاقِ[4]
كم عالِمٍ مدَّ العلومَ حبائلاً ... لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفِراقِ ![5]
وفقيهِ قوم ظلَّ يرصدُ فقهه ... لمكيدةٍ أو مُستَحَلِّ طلاقِ ![6]
يدعونَه عند الشقاق وما درَوْا ... أن الذى يدعون خِذْن شقاقِ[7]
وطبيب قومٍ قد أحلَّ لطبه ... مالا تُحِلُّ شريعةُ الخلاّقِ !

---

(١) الخليقة : السجية والطبيعة .
(٢) الإملاق : الفقر .
(٣) تكتنفه : أى تحوطه وتحفظه . والشمائل : الأخلاق جمع شمال . والإخفاق : خيبة المسعى .
(٤) الخلاق : النصيب من الصلاح والخير .
(٥) حبائل الصيد : الشباك والأشراك التى يمدها الصائد للاصطياد الواحدة : حُبالة . الوقيعة : غيبة الناس . القطيعة هى قطع الصِّلات بين الناس بما يمارسه من سحر وتمائم .
(٦) يرصد فقه : يعده ويهيئه .
(٧) الخذن : الصاحب والصديق . والشقاق : الخلاف ويريد هنا الخلاف بين الزوجين .

قتل الأَجِنَّةَ فى البطون وتارةً ... جمع الدوانق من دم مُهْراق ![8]
أغلى وأثمنُ من تجارب علمه ... يومَ الفَخار تجاربُ الحَلاّق
ومهندسٍ للنيل بات بكفّه ... مفتاحُ رزق العامل المِطْراق[9]
تَنْدى ويَيبَسُ للخلائق كفُّهُ ... بالماءِ طوعَ الأصفَرِ البراق[10]
لا شيءَ يَلْوى من هواهُ فحدُّه ... فى السَّلْبِ حدُّ الخائن السراق[11]
وأديب قوم تستحق يمينُه ... قطع الأنامِلِ أو لَظَى الاحراق
يلهو ويلعبُ بالعقول بيانُه ... فكأنه فى السحر رقيةُ راقى
فى كفه قلم يمج لعابُه ... سُمًّا وينفِثُه على الأوراق[12]
يرد الحقائقَ وهى بيض نُصَّعٌ ... قدسِيَّةٌ عُلْويةُ الإشراقِ[13]
فيردُّها سوداً على جنباتِها ... من ظُلْمة التمويه ألفُ نطاقِ[14]
عَرِيتْ عن الحقّ المطَهَّر نفسُه ... فحياتُه ثِقْلٌ على الأعناقِ
لو كان ذا خُلُقٍ لأسعد قومه ... ببيانه ويراعِه السَّباق

وبعد أن يذكر ما يعانيه شرقنا من إخفاق أسهم فيه كل من العالم ، والفقيه ، والطبيب ، والمهندس ، والأديب راح يحدثنا عن علة ذلك الاخفاق فيقول :

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الاخفاق[15]
الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدْتَها ... أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ[16]
الأمُّ روض إن تَعَهَّدَه الحيا ... بالرِّىِّ أورقَ أيّما إيراقِ[17]

(٨) المهراق : المنصب .
(٩) المطراق : الذى يكثر طرق أبواب الرازق بحثا عن لقمة العيش .
(١٠) تندى : تبتل . والمراد فيضان يده بالماء . والأصفر البراق الذهب ويقصد الرشوة .
(١١) يلوى من هواه : يمنعه . حده فى السلب أى جزاؤه على الرشوة . وحد السارق : قطع اليد .
(١٢) مَجَّ اللعاب من فمه : رمى به . واللعاب الريق . شبه المداد به وينفثه : يخرجه .
(١٣) النُّصَّع : الشديدة البياض . ويريد بقوله «علوية الإشراق» أن نورها من السماء .
(١٤) المقصود أن الكاتب يزيف الحقائق فيختلط الأمر على الناس ويختفى وجه الحق .
(١٥) الإخفاق : عدم الظفر بالمطلوب .
(١٦) الأعراق : الأصول : الواحد عرق .
(١٧) الحيا : المطر .

الأمُّ أستـــــاذُ الأساتـــــذةَ الأولى   شغــلت مآثرهـــم مدى الآفاق[١٨]
وعليكُـــمُ أن تستـــبين بناتكُـــــم   نورَ الهُــدى وعلى الحيــاءِ البـــاقى

وأراك — معى — قد أخذتك النخوة فى رحلة البحث عن « المروءة » ! ورحت تسائلنى : أين هى الرسائل السبع ؟ وكيف الطريق إلى المروءة ؟

وأخذت تقول : إننى على أتم استعداد لكى أصحبك فى رحلة البحث عنها بعد أن تُعِدَّ رسائل الشوق إليها من هنا وهناك ، فلن يهدأ لنا بال ، ولن ينصلح لنا حال إلا فى وجودها ، فهل آن الأوان لكى نبدأ ؟

فليطمئن قلبك ياصديقى فقد هدانى الله سبحانه بعد رحلة بحث طالت فى تراثنا العربى : قديمه وحديثه .. شرقيِّة وغربيِّة إلى تلك « الرسائل السبع » عشت فيها مع « ابن جناح » ومع « ابن حِبّان » ومع « الماوردى » ومع « الحُصْرى » ومع « الطَّهطاوى » ومع العلاّمة : « أحمد أمين » وصاحب الفضيلة « الخضر حسين » وهأنذا قررت أن أتوجه إليها ، ومعى أحلى وأجمل ما قيل عنها ... وكأننى أهتف .. وجدتها .. وجدتها... وجدتها .. ولسان حالى يقول : هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا !! فتعالى معى نَترضَّاها ونستعتبها حتى ترضى !!

(١٨) شغلت : الخ أى ملأت أعمالهم الباقية أنحاء الدنيا .

اليها ..

الى المرءة الغائبة !!

هل تسمحين لى أن أتحدث فى حضرتك ؟ !
وهل يشفع لى أننى أحد الذين تعلقوا بك فى صباهم
ولكنه وقد تغير حاله من بعد قوة ضعفا وشيبة راح
يعانى من جراء غيبتك !!
وهأنذا أحمل إليك ما تجمع فى صندوقى من رسائل

البلغاء ، والعلماء ، والمحدثين ، والفقهاء ،
والشعراء من كل ديار الاسلام وعلى مر السنين
والأعوام فهل نطمع فى عودتك ؟ !

محمد ابراهيم سليم

الرســالة الأولى

كتاب الأدب والمروءة

إليها .. الى المروءة
التى توارَتْ بالحجاب ، ولم تعد الينا بعد طول
غياب معتقدة أن أهلها دون خلق الله ماتوا .. !!
تفضلى .. هذه الرسالة من رسائل البلغاء
لصالح بن جناح الدمشقى وكفى عن البكاء ، وكفكفى
دمعك الممزوج بالدماء !! وتعالى نفتح صفحة
جديدة بيضاء .. فهناك قلوب مازالت خضراء ،
ونفوس صافية لم ينقطع منها الأمل والرجاء أن
تعودى إليهم وتملئى حياتهم بالنور والضياء !!

للحكيم صالح بن جناح اللخمى الدمشقى

أضواء على حياة صاحب الرسالة

صالح بن جناح اللخمى الشاعر أحد الحكماء .

حكى عنه أبو عثمان الجاحظ ممن أدرك الأتباع بلاشك ، وكلامه مستفاد فى الحكمة ، وقد أخذ عنه بنيسابور .

قال الجاحظ :

قال صالح بن جناح لابنه :

« يا بنى ، اذا مر بك يوم وليلة قد سلم فيها دينك وجسمك ومالك ، فأكثر الشكر لله تعالى ! فكم من مسلوب دينُه ، ومنزوعٍ مُلْكُه ، ومهتوك سِتْرُه ، ومقصومٍ ظهرُه فى ذلك اليوم وأنت فى عافية !!

وفيه أقول :

لو أننى أعطيتُ سُؤْلى لما — سألتُ إلا العفوَ والعافية
فكم فتى قد بات فى نعمةٍ — فَسُلّ[19] منها الليلةَ الثانية

وقال : أصل المروءة الحزم ، وثمارُها الظفر .

اذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءةً وقال :

« اعلم أن من الناس من يجهل اذا حلمت عنه ، ويحلم اذا جهلت عليه ، ويُحسِنُ إذا أسأت به ، ويسىء إذا أحسنت إليه ، ويُنصفُك إذا ظلمته ، ويظلمك إذا أنصفته ، فمن كان هذا خُلقه ، فلابد من خلق ينصفُك من خُلقِه ، ثم قِحَةٌ تنصف من قِحته ، وجهالة تقدع من جهالته ، وإلا أذلك ، لأن بعض الحلم إذْعان .

(١٩) سل منها : سلبت عنه وجرد منها !!

وقد ذل من ليس له سفيه يعضده ، وضل من ليس له حكيم يرشده »

ويقول ابن عساكر : وكان عديم نظير القول في المواعظ والأدب .

وبعد .. فهذا هو صالح بن جناح وهذه هي رسالته التى نشرها العلامة الشيخ « طاهر الجزائرى » .. ونشرها العلامة « محمد كرد على » فى رسائل البلغاء .

كتاب الأدب والمروءة

لصالح بن جناح

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال صالح بن جَناح :

اعلم أن العرب قد تجعلْ للشيء الواحد أسماء ، وتسمى بالشيء الواحد أشياء ، فإذا سنح لك ذكرُ شيء فاذكره بأحسنِ أسمائِه ، فإن ذلك من المروءة ، وإنما المرء بمروءته .

- فالمُروءَةُ : اجتنابُ الرجلِ ما يَشينُه !!
- واجتناؤه ما يَزينُه !!
- وإنه لا مُروءَة لمن لا أدبَ له ..
- ولا أدبَ لمن لا عقلَ له ..
- ولا عقلَ لمن ظنّ أن فى عقلِهِ ما يُغْنيه ويكفيد عن غيره
- وشتانَ بين عقل وافر معه خمسون عقلا كلها وافر مثله وأوفر منه ، وبين عقل وافر لاقادة معه .

وفى ذلك أقول شعراً :

وما أَدَّبَ الانسانَ شيءٌ كعقله ولا زينَـةٌ إلا بِحُسْنِ التـــأدُّبِ

حُسْنُ التأدُّب

الأفئدة مزارع الألسن :

وقال : إن الأفئدة مزارع الألسن ،

- فمنها ما ينبت مازرع فيه من خسَن ، ولا يُنْبِتُ ما سَمُج[20]
- ومنها ما يُنْبت ما سَمُجَ ، ولا ينْبِتُ ما حَسُن .
- ومنها ما يُنْبِتُ جميعَ ذلك .
- ومنها ما لا ينبت شيئا .

وان من المنطق لما هو أشدُّ من الحجر[21] وأنفَذُ من الإبر ، وأحرُّ من الأسنَّة[22] وأنكدُ من زُحَل[23] !!

ولربما احتقرت كثيرا منه على حرارته ومرارته ونكده ، مخافةَ ما هُو أحرُّ منه ، وأمرُّ ، وأفظَعُ ، وأنكد .

---

(٢٠) سمُجَ سماجةً : قَبُح .

(٢١) وهو مقتبس من قول الله تعالى ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ (البقرة : ٧٤) .

(٢٢) بل إن :

جراحات السنان لها التئام ولايلتام ماجرح اللسان

(٢٣) كوكب تحيط به منطقة نيرة ، يضرب به المثل فى العلو والبعد ويتخذ المنجمون من زُحَل رمزا للنكد .

وفى ذلك أقول شِعْراً :

لَقَدْ أُسْمَعُ القولَ الذى كادَ كُلَّمَا ... يُذَكِّرُنِيه الدَّهْرُ قَلْبى يُصَدَّعُ
فَأُبْدِى لمن أبداه مِنِّى بشاشةً ... كَأَنِّىَ مسرورٌ بما منه أسمعُ[٢٤]
وما ذاك من عُجْبٍ به غير أنّنى ... أرى أنَّ ترك الشَّرِّ للشَّرِّ أَقْطَعُ[٢٥]

ذو الوجهين فاقد المروءة

وقال فى ذى الوجهين :

من أَظْهرَ ما تُحِبُّ أو تكرَه ، فإنما يقاسُ ما أضمر بما أظهر ، لأنك لا تقدر أن تعرف ما أسر !![٢٦]

وقال :

ليس المسىءُ إذا تَغيَّبَ سوؤهُ ... عِنْدى بمنزلةِ المسىءِ المُعْلِن[٢٧]
من كان يُظْهِرُ ما أُحِبُّ فإنه ... عِنْدى بمنزلةِ الأميرِ المُحْسِنِ[٢٨]

---

(٢٤) وهذا لون من المداراة ، وإغلاق باب الشر ، ويقول الشاعر :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا ... تجاهلت حتى ظُنَّ أنى جاهل

ويقول آخر :

فدارِهم مادمتَ فى دارهم ... وأرْضِهم ماذُمتَ فى أرضِهم

ويقول ثالث :

لو ان كلَّ كلْبٍ عوى ألقمته حجراً ... لأصبح الصَّخْرُ مثقالا بدينار

(٢٥) ويعلمنا القرآن فيقول :

﴿ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ (فصلت : ٣٤) .

(٢٦) ويقول الإمام على رضى الله عنه :

«ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه» وفى إحدى خطب أبى جعفر المنصور :

ولا تسِرُّوا غش الأئمة ؛ فإنه لم يُسِرَّ أحد قطُّ منكرةً إلا ظهرت فى آثار يده ، أو فلتاتِ لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، لإعزاز دينه ، وإعلاء حقه» .

(٢٧) فأخطر الناس المنافق ذلك الذى :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

(٢٨) فعلينا أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر .

والله أعْلَـــمُ بالقلـــوبِ وإنَّمـــا   لك ما بدالك مِنْهُـــــمُ بالألسُنِ
ولقـــد يُقـــالُ خلافُ ذلك إنما   لك ما بدا لك منهم بالأعيُـــنِ

الصُّدُودُ والرَّفض

وقال فى الصُّدُود والرفض :

أما بعد . فقد أحضرتنى من صَدِّك ، ما آيَسَنى من وُدِّك !! ولم يزل يجرى فى لحظك ما يدخلنى فى رَفْضك ، ويدلُّنى على غِلِّ صدرك !!

وفى ذلك أقول شعراً :

تَظَـــلُّ فى قلبـــه البـــغضاءُ كامنـــةً   فالقـلْبُ يَكْتُمهَا والعين تُبديهَـــا[٢٩]
والعينُ تعـرِفُ فى عَيْنَـــى مُحَدِّثهـــا   من كانَ مِنْ حِزْبِها أو مَنْ يُعَادِيهَا[٣٠]
عينـــاكَ قد دلَّتـــا عَيْنـــىَّ منكَ على   أشْيـــاءَ لولاهما ماكُـــنْتُ أَدْريهَـــا
إنَّ الأمـــورَ التـــى تُخْشَى عواقِبُهـــا   إنَّ السلامـــةَ مِنْهـــا تركُ ما فيِهَـــا

النظر إلى مال غيرك

وقال فى كثرة المال وقِلَّته :

لا تَستكثِـــــرْ مالَ أحَـــــدٍ   ولاتَسْتقِلَّـــه ،حتـــىتَعلـــمَماعيالُـــه

فإن من كثُـــرَ مالُـــهُ وعيالُـــه فهـــو مُقِـــلّ
ومـــن قلَّ مالُـــه وعيالُـــه فهـــو مُكْثِـــر[٣١] .

---

(٢٩) وفى القرآن الكريم ماجاء عن متلهم :

﴿قد بدت البغضاء من أفواههم ، وماتخفى صدورهم أكبر﴾ (آل عمران : ١١٨) .

(٣٠) فللعيون لغة فصيحة وفى هذا يقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة اهلها   إشارة محزون ولم تتكلـــم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا   وأهلا وسهـلا بالحبـيب المتيم

(٣١) ومن أجل هذا كان «الأولاد محنة مبخلة» ولم يكن بد من أن يحتاجوا إلى تدبير حياتهم ، ولهذا صدرت النصيحة الكريمة :

«لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدرهم عالة يتكففون الناس» .

فالأمر إذن نسبى .. والأولاد قلة وكثرة هم الفيصل .

الأحمق كما تبدو صورته
فى مرآة ابن جناح

وقال فى ذكر الأحمق ودخوله فيما لا يعنيه :

وأكثرُهم دُخولا فيما لا يُدْخَل فيه ! وأرضاهم بما لا يَكْفِيه ! عدوُّه أعْلَمُ بسِرِّه من صديقِه ! وصديقُه قد غُصَّ[٣٢] منه بريقِه ! ولا يَثِقُ بمن نصحــــه ! ولا يتَّهِم من خدعــه ! ولا يأمَن إلا من يخونُه ! ولا يتحفظ إلا مِمَّن يحفظُه ! ولا يُكرِمُ إلا من يُهينه !

الأحمق واللئيم :

أشبهُ شيء خُلُقاً باللئيم ! إن أحسنتَ إليه لم يشكر ! وإن أسأتَ إليه لم يَشْعُر ! لا ينفعُك من وجه إلا ضرَّك من وجوه !! إن أقبل عليك لم يُسُرَّك ! وإن أدْبَرَ عنك لم يَضُرَّك ! وإن أفسدَ شيئاً لم يُحْسِنْ أن يُصْلِحَه ! وإن أصلحَ شيئاً أفسده ![٣٣]

ردود الفعل عنده :

إن أحببتَه فرأى منك حسنا لم يُحسِنْ أن ينشرَه ! وهو مع ذلك بخطئه أشدُّ إعجاباً من العاقل بصوَابه ! إن جلس إلى العلماء لم يزْدَدْ إلا جهلا ! وإن جلس

---

(٣٢) يقال غُصَّ بالطعام والماء : اعترض فى حلقه شيء منه فمنعه التنفس ، وذكره يعترض الحلق ويصيب الصديق بغصه . وفى مثله يقول الشاعر : .... فإذا ذكرتهم غسلت فمى !!

ولا عجب .... فداء الحمق ليس له دواء !!

ويقول الزمخشرى فى أساس البلاغة : أغصه بريقه أضجره :

(٣٣) أليس البعد عنهما ومقاطعتها غنيمة ؟!! ألا ينبغى أن نفر منهما فرارنا من الأجرب ؟!! مطلوب منا أن نختار الصديق قبل الطريق وأن نعيد حساباتنا على الفور فيمن نتخذ منهم مرافقين وأصدقاء .

إلى الحكماء لم يزدَدْ إلا طَيْشاً ! وإنما جعل نفسه المحدِّث لهم يكلّفهم أن يكونوا المنصتين له[٣٤]

لمسات أخيرة فى رسم صورة الأحمق :

أعيا الناسِ[٣٥] إذا تكلَّم ! وأبلدُهم إذا تعلم ! وأصحبُهم لمن يشينُه ! وأرفضهم لمن يزينه ! وأشدُّهم فى مَوْضِعِ اللين ! وألينهُم فى موضِع الشدة ! وأجبنهُم فى موضِع الشجاعة !

إن افتقر عجب من الناسِ كيف يستغنون ! وإن استغنى عجب من الناس كيف يفتقرون ! لا يفهم إن حدَّثته ! ولا يفقه إن أفهمته ! ولا يقبَل إن وعظته ! ولا يذكر إن ذكّرته !

وفى ذلك أقول شعراً :

المرءُ يُصْدَعُ ثُمَّ يُشْفى داؤه ... والحُمْقُ داءٌ ليس مِنْه شِفَاءُ
والحُمْقُ طبعٌ لا يَحُول مُرَكَّبٌ ... ما إنْ لِأَحْمَقَ ـ فَاعْلَمَنَّ ـ دَوَاءُ[٣٦]

---

(٣٤) وهذا النموذج يحيا بيننا ، وكثيرا مانلقاه ومن الخير لنا أن نتركه جانبا مادام بخطئه معجبا .

وقد كان عبد الملك بن مروان يعتبر الإنصات مدرسة يتخرج فيها العلماء والحكماء ، فكان يقول لابنه : «إذا جالست العلماء فأنصت لهم ، وإذا جالست الجُهَّال فأنصت لهم ؛ فإن فى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم ، وفى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم .»

وإذا كان سبحانه قد منحنا لسانا واحدا وأذنين فما ذلك إلا لنسمع ضعف ماتتكلم .

وعيبنا أن كل واحد منا يريد أن يكون هو المتكلم فمن يسمع ؟ ومن يصمت ؟ .

إن معظم طلبتنا لايستفيدون من المحاضرات الجامعية .. ماذاك إلا لأنهم لم يتعلموا فن الإنصات !

(٣٥) العِيّ : الحصر والعجز عن الكلام ، وقد كان العرب يضربون المثل بباقل فى العِيّ فيقولون : «أعيا من باقل»

وباقل من «إياد» اشترى ظبيا بأحد عشر فسئل عن ثمنه فمد يديه ، وأخرج لسانه فشرد الظبى. (مجمع الأمثال للميدانى) .

(٣٦) لا يُحول لا يتحول عن صاحبه فقد ركب فى طبيعته التى خلق عليها ، ولله فى خلقه شئون !

هذه الأهواء التى تقودنا

إلى أين ؟

وقال فى ذكرى الهوى :

- إن من الناس من إذا هَوِىَ عَمِىَ[٣٧]
- ومنهم من إذا هوى أبصر مرة وعمى أخرى
- ومنهم من اذا هوى لم يكد يخفى عليه شىء

وهو اللبيب العاقل ، الحليم الكامل ، الذى إن أَعْجَبَه أمرٌ نظر إلى هواه وعقله :

- فإن اتَّفقا اتَّبعَهُما .
- وإن اختلفا اتبع عقله وترك هواه ، وكان أمره معتدلاً ، يشبه بعضه بعضا ، وقليل ما هم !

وفى ذلك أقول شعراً :

امْــلِك هواكَ إذا دعــاكَ فربَّمــا قادَ الحليـــــمَ إلى الهلاكِ هَواهُ[٣٨]
اللهُ يُسعِـــدُ من يشاءُ بفضلِــه وإذا أراد شقــاءَه أشقـــاه

سلوك من يفقد المروءة !

وقال أيضا فى أناس :

- تحسُن وجوههــم عنــد حاجتهم
- وتَغبَّــر وجوهُهُــم عنــد استغنائهــم

---

(٣٧) ﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾ (الإسراء : ٧٢)
(٣٨) وقد نهانا الله فقال : ﴿ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ (ص : ٢٦)

أرى قوماً وجوهُهُم حسانٌ إذا كانت حوائجهُم إلينا
وإن كانتْ حَوَائجُنَا إلَيْهِم تَغَبّر حسنُ أوجُهِهم علينا
ومنهم من سيمنَعُ مالديه ويغضبُ حين يُمنَعُ مالدينا
فإن يكُ فعلُهُم شحاً وفِعْلى قبيحاً مثلَه فَقَدِ استَوينَا[٣٩]

الذين يتصدَّوْن لما لا يُحْسِنُون !!

وقال فيمن فعل أمراً لا يُحسِنُ أن يحتال له :

اعلم أن من قاتل بغير عُدَّة ، أو خاصم بغير حجة أو صارع بغير قوة ، فهو الذى صرع نفسه ، وخصم نفسه ، وقتل نفسه[٤٠] .

فإن ابتليت بقتال أحد ، أو مخاصمته ، أو مصارعته ، فأحسن الإعداد له[٤١] ، واعرف مع ذلك عُدَّته وأبصِرْ حُجَّتَه ، واخْبُر قُوَّته . كما يخبر قوتَك ، وحُجَّتَك ، وعُدَّتك .

فإن رأيت تقدُّماً ، وإلا كان التأخر قبل التقدم خيراً من التندُّم بعد التقدم !!

وفى ذلك أقولُ شعراً :

إذا ما أردت الأمر فاعرفه كلَّه وقِسْه قياسَ الثَّوبِ قبل التقَدُّم[٤٢]
لعلك تَنْجو سالماً من ندامةٍ فلا خيرَ فى أمرٍ أتى بالتندُّم

---

(٣٩) ومثل هؤلاء نصادفهم فى مجتمعنا من أصحاب المصالح :

كثيرون عند جنى الثمار قليلون عند غرس الشجر

يفرشون الرمال للزائر ، وينفضُّون عنه إذا لم يكن لهم حاجة إليه ..

(٤٠) وقد علمنا الدين ألا نتعرض من البلاء لما لا نُطيق حتى لا يُذل المسلم نفسه .

(٤١) ألا ليتنا واجهنا كل أعدائنا بهذا الفكر الذى ينبثق من قول الله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ !!

ولكننا نجتر الآلام ونعيش ذلَّ الديون وهمومها ليلا ونهاراً .

(٤٢) وفى عصرنا الحديث أصبح «الكومبيوتر» رائد الإنسان إلى المجهول ، ودليله إلى التقدم والنجاة !! وكل شىء بحساب وكثيرا ما يعيد الإنسان حساباته طلبا للنجاة !!

إتيان الأمر من غير جهته :

وإن من الناس من يرزق حجةً ، أو عدةً أو قوةً ، فتكون عُدَّتُه هى التى تَقتُلُه ، وقوتُه هى التى تَصْرَعه ، وحجته هى التى تَخْصمُه ، وذلك أنه ربَّما أدَلَّ[٤٣] فقاتل قبل ان يعلم : أهو أعَدُّ أم الذى يقاتله ؟ وكذلك فى الذى يخاصمه ويصارعه ، فإذا هو قد قتل ، أو صُرِع أو خُصِم ، فلم تنفعه جودة عُدَّته ، ولا قوةُ حجتِه حين أتى الأمر من غير جهته .

وفى ذلك أقول شعراً

إذا ما أتيت الأمــر من غير وَجْهِــه   تَصَعَّبَ حتى لا ترى منــه مُرْتَقَــى
فإن الذى يصطاد بالفــخ إن عتَـــا   على الفخِّ كان الفـخُّ أعتى وأضيقَـا[٤٤]

الذى يعاتب الناس بغير مودتهم ويوجب حق نفسه عليهم

وقال فى الذى يعاتب الناسَ بغير مودتهم ، ويوجب حق نفسه عليهم :
لا تدفع الناسَ إلى برِّك وإجلالِ أَمْرِك وتعظيمِ قدْرِك .

.... بالمعاتبة

ولكن ادعهم الى ذلك بما تستوجبُه منهم وانظر الأمرَ الذى أُكْرِمَ به من هو أبعدُ منك ... وقُرِّبَ به من هو أقرب منك .

... فالزمْه[٤٥]

---

(٤٣) تملكه الإعجاب بقوته ، واستولى عليه الغرور فاجترأ .

(٤٤) فما أشد حاجتنا إلى العلم والفهم والرفق فى معالجة الأمور بعد دراسة متأنية وخبرة حكيمة حتى تنجح مسيرتنا ويتقدم ركبنا وإلا فسوف نظل «محلك سر» وكأننا «ننفح فى قربة مقطوعة» فإن الأمور لها أبواب وقد قال الشاعر :

إذا مأتيت الأمر من غير بابه   ضللت ، وإن تقصد إلى الباب تهتدى

(٤٥) كثيرون فى مجمعنا أولئك الدين لايكفون عن العتاب ليشعروا من حولهم بالتقصير والذنب ، فالإنسان يحرز مكانة الحب والتقدير والاحترام بالبذل والعطاء وعندئذ يشعر الناس نحوه بما قصروا فى حقه ... ومثله من يقول فيه الشاعر :

إذا ذهب العتاب فليس ود   ويبقى الود مابقى العتاب

فإنك إن تلزمْه لم تحتج معه إلى معاتبة ، ولا استبطاء حق لأنك إن دعوتهم إلى تَكْرِمَتِك بغير ما تستوجِبُ التكرمةَ به ، فإنما دعوتَهم إلى إهانَتِك :

- إما بكلامٍ يجرحك وإما بفعالٍ تفدحك[٤٦]

وإن دعاهم إلى ذلك فضلك : أجابوا :

- إما بثناءٍ يرفعُك أو بجزاء ينفعك .

(٤٦) فدَحه الأمر : أثقله وبهظه ، والفادحة النازلة ، وفوادح الدهر خطوبه .

معرفة الإخوان

كيف يتسنى لنا معرفتهم ؟

وقال فى معرفة الإخوان : إنك لن تعرفَ أخاك حقَّ المعرفة ، ولن تخبُره حق المخبر ، ولن تجربَه حق التجربة ، وإن كنتما فى دار واحدة حتى تسافر معه ، أو تعامله بالدينار والدرهم(٤٧) ، أو تقع فى شدة ، أو تحتاج إليه فى مهمة .

فإذا بلوته(٤٨) فى هذه الأشياء ، فرضيته ... فانظر !

- فإن كان أكبر منك فاتخذه أبا
- وإن كان أصغر منك فاتخذه ابنا
- وإن كان مثلك فاتخذه أخا

وكن به أوثق منك بنفسك فى بعض المواطن(٤٩) .

---

(٤٧) وقد قال شاعرنا :

لا تمدحَنَّ امرأً حتى تجربه ولا تذمّنّه من غير تجريب

(٤٨) بلوته : امتحنه واختبرته .

(٤٩) إننا بهذا نصنع الأساس المتين للعلاقات فى المجتمع ويلتفت الإنسان حوله فإذا هو بين أب وأخ وابن فيجد نفسه ، ويلتئم الشمل وتعود الروح .

محاذير يجب أن نتنبه إليها :

وقال :

كن من الكريم على حذر إن أهنته ! [٥٠] ومن اللئيم إن أكرمتـه [٥١] ومن العاقل إن أحرجته ومن الأحمق إن مازحته ومن الفاجر إن عاشرته ولا تُدِلَّ على من لا يحتمل إدلالك [٥٢] ولا تُقْبِلْ على من لايحبُّ إقبالَك وكن حَذِراً كأنك غِرّ [٥٣] وكن ذاكراً كأنك ناسٍ والزم الصمت إلى أن يلزمك التكلم فما أكثر من يندم إذا نطق !! وأقلَّ من يندم إذا لم ينطق !!

عندما ينبغي التكلم :

وإذا ابتليت فعند ذلك تُعرَف جودةُ منطقك .. وقلةُ زللك . وسعة عفوك .. وقلة حيلتك .. ومنفعة قوتك .. وحسن تخلصك [٥٤]

واعلم أن بعض القول **أغمض** من بعض وبعضه **أبين** من بعض وبعضه **أخشن** من بعض وبعضه **ابين** من بعض وإن كان واحداً .

أثر الكلمة اللينة والكلمة الخشنة :

فإن الكلمة **اللينة** [٥٥] لتلين من القلوب ما هو أخشن من الحديد ! وإن الكلمة **الخشنة** لتحشن من القلوب ماهو ألين من الحرير !

---

(٥٠) فهو يؤمن أن من لايكرم نفسه لا يكرم .

وأن : من يهن يسهل الهوان عليه   ماالجرح بميت إيلام

(٥١) فقد قالوا :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

(٥٢) يقال أَدَلَّ فلان على فلان ابسط وتدلل وأوثق بمحبته .

(٥٣) الغِرُّ : الذى لا تجربة له .

(٥٤) فإنما يمتاز إنسان على آخر بما يكون منه فى مثل هذه المواقف .

(٥٥) وقد جاء القرآن بهذا ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ وقوله سبحانه : ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾ وقوله عزل وجل : ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾

أعظم الناس بلاءً :

وإن أعظمَ الناسِ بلاءً ، وأدومَهم عناءً ، وأطولَهم شقاءً من ابْتُلِيَ بلسانٍ مطلق ، (٥٦) وفؤاد مطبق ، فهو لا يُحسِنُ أن ينطق ، ولا يقدر أن يسكت .

مالا يحسن بك :

واعلم أنه ليس يحسن أن تجيب من لا يسألك ولا أن تسأل من لا يجيبك وفى ذلك أقول شعرا :

ولا خيـــرَ فى حلـــمٍ إذا لم يكـــن له   بوادرُ تحمـــى صفـــوَه أن يُكَـــدَّرا
ولا خيـــرَ فى جهـــلٍ إذا لم يكـــن له   حليم إذا ما أورد الأمـــــــر أصدرا (٥٧)

وجه من وجوه المروءة :

وقال فى الرفق بالدواب :

إن رفق الرجل بدوابه (٥٨) ، وحسن تعاهده لها وقيامه عليها عمل من أعمال البر ، وسبب من أسباب الغنى ووجه من وجوه المروءة !

وجه آخر للمروءة :

وقال : التدبير مع المال القليل ، خير من المال الكثير مع سوء التدبير (٥٩) وإنما المنفقون ثلاثة :

- جوَادٌ مُبذِّر
- وكريم مُقَدِّر
- ولئيم مقتر .

---

(٥٦) فكل خطايا الإنسان من لسانه ، وإذا أطلقه هنا وهناك جرح وأدمى القلوب وكدر النفوس وربما التأمت جراحات السيوف والأسنة ، ولكن جراحات الألسنة لاتلتئم :

جراحـــات السنـــان لها التئـــام   ولايلتـــام ماجـــرح الـــلسان

(٥٧) يقال أصدر الإبلَ : إذا ساقها بعد ورودها الماء .

والمقصود أنه يضع الأمور فى نصابها ، ويؤديها على الوجه الأكمل تامة غير منقوصة .

(٥٨) ومن حرم الرفق فقد حرم الخير كله .. فما دخل الرفق فى شيء إلا زانه ، ولا عدم من شيء إلا شانه !

(٥٩) فالقليل مع التدبير يحقق الهدف . ويفيض ، أما الكثير مع سوء التدبير فمصيره إلى ضياع وتبدد .

وفى ذلك أقول شعراً :

رُبَّ مالٍ سينعَمُ الناسُ فيه وهو عن ربه قليل الغَنَاءِ[60]
كان يَشْقَى به وَيَنْصَب حيناً ثم أمسى لمعشرٍ غرباءِ[61]
ماله عندهم جزاء إذا ما أنعموا فيه غير سوء الثناء
رب مالٍ يكون غمّاً وذمّاً وغنيٍّ يُعَدُّ فى الفقراء !!

من كمال الأدب والمروءة مع الضيفان .[62] :

وقال فى تصنيف الطعام :

اذا كنت ممن يؤكل طعامُه ، وتحضر مائدته ، ويُؤكل معه ، فليكن الذى يتولى صنعة طعامك من ألبِّ الناس فى عمله ، وأنظفهم فى يديه ، ولا تدع إعلامه إن أحسن ، ولا إنذاره إن أساء ، فإن تعتُّبك عليه خير من تعتب الناس عليك .

من كمال المروءة وحسن الأدب نظافة المظهر :

قل لى ماذا تلبس ؟ أقل لك من أنت ؟ !

واعلم أن لكل شيء غاية وأن غاية الاستنقاء[63] التنظيف فى الاستنجاء والاكثار من الماء حتى يستوى اليدان والريح والمنظر ، فإنه لا طِيبَ أطيبُ من الماء ، ولو أنه المسك وما أشبهه من الأشياء وإنما يُستدَلّ على نظافة الرجل بنقاء أثوابه[64] وإنما يكون القذر فى الحمقى من الرجال والنساء ، وبه يستدل على بلادتهم ، وفى ذلك أقول شعراً ·

ولا خيرَ قبلَ الماء فى الطيب كلِّه وما الطيبُ إلا الماء قبل التّطَيُّبِ
وما أنظف الأحرار فى كل مطعم وما أنظف الأحرار من كل مشرب

---

(٦٠) ربه : صاحبه . قليل الغَناء ــ بفتح الغين ــ قليل الفائده .

(٦١) ينصب : ــ بفتح الصاد ــ يتعب ويجد فى تحصيله ويشقى فى الحصول عليه .

(٦٢) ضيفان : جمع ضيف ، وقد أمرنا بإكرام الضيف .

(٦٣) طلب النقاء والحصول عليه .

(٦٤) وهناك لفتة كريمة إلى نقاء الثوب ﴿وثيابك فطهر﴾ وليس من الكبر أن يكون الرجل ثوبه نظيفا ونعله نظيفا ، والله جميل يحب الجمال .

وكما ينبغى الاهتمام بالمخبر يجب أن يهتم بالمظهر على أن يكون ذلك نابعا من ثلاثة أشياء : النظافة ، والبساطة ، والرجولة .

كيف تبدو فى نظر العدو والصديق ؟

وقال فى صفة العدوّ والصَّدِيق :

احرص ألا يراك **صديقُك** إلا أنظفَ ما تكون ولا يراك **عدوك** إلا أحصن ما تكون .

فأما **الصديق** فإن كان الذى أعجبه منك خُلُقك أو خَلْقك وهما كان يحبك ، فكلَّما ازددت حسنا كان حبُّه لك أكثر ، ورغبتُه فيه أوفر .

وأما **العدو** فليس شيء أعجبَ إليه من دمامتك وخساستك ، فاحترس منه ، وأظهر الجميل ، فليس شيء أعجب إليه من التمكن منك ، فانظر ألا يكون شيء أعجب إليك من التحصن منه (٦٥) .

لا مروءة لمن لا أدب له .. !! ولا أدب لمن لاعقل له .. !!

وقال فى العقل والأدب :

اعلم أن العقل أمير ، وأن الأدب وزير فإن لم يكن وزير ، ضعف الأمير . وإن لم يكن أمير بطَل الوزير !!

وإنما مثل العقل والأدب كمثل الصيقل والسيف ، فإن الصيقلَ إذا أعطى السيف أخذه فصقله ، فعاد جمالاً ، ومالا ، وعَضُداً يُعتمد عليه ، ويُلْتجأ إليه .

فالصيقلُ (٦٦) الأدب ، والسيف العقل .

فإذا وجد الأدب عقلا تفقه ووفقه ، وقواه وسدده ، كما يصنع الصيقل بالسيف .

واذا لم يجد عقلا لم يعمل شيئا ، لانه لا يُصْلِحُ إلا ماوجد .

وإن من السيوف لما يصقل ويُسْقَى ويخدم ، ثم يباع بأدنى الثمن . ومنها ما يباع بزنته درًا وَزَبْرجَداً (٦٧) ، وذلك على نحو الحديد وجودته أو رداءته .

---

(٦٥) وفى القيم والمبادىء السليمة مايعصم ويصون ويحمى وعند ذلك لا يجد العدو ثغرة يصل منها إلى النيل منك .

(٦٦) يقال : صَقَلَه أى جلاه ، والصيقل : شحَّاذ السيوف وجلَّاؤها .

(٦٧) الزبرجد : من الجواهر الكريمة .

وكذلك الرجلان يتأدبان بأدب واحد ، ثم يكون أحدهما أنفذَ من الآخر أضعافاً مضاعفة .

وإنما ذلك على قدر العقْل وقوته فى الأصل وفى ذلك قلت شعراً :

وقد يُصلح التأديب من كان عاقلا   وإن لم يكن عقل فلن ينفع الأدب

وقال فى المراء :

اذا اجتمع أهل نوع فتذاكروا على نوعهم ذلك ، فلم يكن أصل كل واحد منهم أن ينفع بما أسمع ، وينتفع بما سمع . فاعلم أن تذاكرهم ذلك من أول المراء : يصدع العلم ، ويوهن الوُدّ ، ويورث الجمود ، وينشىء الشحناء ، وينغل القلب .

وفى ذلك أقول :

تجنب صديق السوء واصرم حبالَه   فإن لم تجد عنه مَحيصاً فداره(٦٨)
وأَحْبِبْ صديقَ الخير واحذر مِراءهُ   تنل منه صفو الوُدِّ مالم تجاره(٦٩)

الحكمة ضالّة المؤمن :

وقال فى الحكمة :

أما ما يُسْمَعُ من كثير من الحكمة فإن أوَّلَه شيء يخطر على الأفئدة إذا خطر وهو أصغر من الخردلة ، وأدقُّ من الشعر ، وأوهن من البعوضة ، ثم تحركه الألسنة ، وتنبذه الأفئدة ، كما يحاك البرد ، وكما يُمَدُّ النهر ، فيعود أكثر من الكثير ، وأوثق من الحديد ، وأثمن من الجوهر وأحسن من الذهب ، وأنفع من كليهما ، لأنه يزيد فى المنطق ، ويُذْكى الذهن ، ويعين على الابلاغ ، ويتجمَّل به القائل ، ويتقلب فيه كيف يشاء ويختار منه مايشاء ، فينتفع به اللطيف وينبل به السخيف ! ويتأيد به الضعيف ! ويزداد به الأيِّدُ(٧٠) قوة فى منطقه ، وبلاغة

---

(٦٨) اصرم حباله : اقطع مابينك وبينه من صلة . محيصا : مفرا ومخرجاً فداره : حاول الإصلاح كما يحاول السابح فى الماء الجارى من عير أن تفقد دينك وخلقك فمن لم يدار الناس ملوه .

(٦٩) المراء : الاعراض ، ولايكون المراء إلا اعتراضا بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضا .

(٧٠) الأيد : القوى .

فى كتبه ، فيكون فى حفظه منفعة للخطباء فى خطبهم وللبلغاء فى بلاغتهم وكتبهم وللكرماء فى بشاشتهم وللشعراء فى قصائدهم .

نصيحة لأصحاب الحكمة :

فإذا كنت ممن يؤلف حكمة أو يضع رسالة أو يذكر فى مهمة ، فلا تكمه[٧١] قلبك ولاتُكْرِه ذهنك !! ، فإن القلب إذا أُكره كلَّ ووقف ولكن إذا كنت فى شىء من ذلكَ ، فاستعن بالتفرغ منه على التفرغ له ، والتأخر عنه على التقدم فيه ، فإن الذهن يجمّ كما يجم البئر ، ويصفو كما يصفو الماء .

إخراج الكلام :

وقال فى الكلام وإخراجه : اعلم أن مثل الكلام كمثل الحجارة : فمنها ما هو أعز من الذهب والفضة !! ومنها ما لايُعْطَى فى الصخرة العظيمة منه درهم !! .

وفى ذلك أقول شعرا :

وما الحَجرُ الكبيرُ أعزُّ فيما ظَفِرْتَ بِهِ مِنَ الحَجرِ الصَّغيرِ
وكم أبصرتُ من حَجَرٍ خَفِيفٍ صَغيرٍ بِيعَ بالثَّمنِ الكثير

طلاقة الوجه وحسن الخلق :

وقال فى طلاقة الوجه وحسن الخلق : كنْ أسهلَ ما تكونُ وجْهاً ، وأظْهرَ ما تكونُ بشْراً ، وأقْصرَ ما تكونُ أمداً ، وأحسنَ ما تكون خُلُقاً ، وألين ما تكون كَنَفاً ، وأوسعَ ما تكونُ أخلاقاً ، فإن الأيام والأشياء عقبٌ ودولٌ .[٧٢] فإن أنكرتَ منها شيئاً يوماً ما كان ما أنكرته منها شيئاً خفيفا على أهل الشماتة ، وعلى أهل الصفاء . واحذر أن تحزن من يحبك ، وتفرح من يحسدك فلم أر فى مصاب الدهر مصيبةً أوحش من تغيير النعمة ، وإن أنت لم تنكر منها شيئاً ، ودامت لك بما تريد ، فما فى الدنيا شىء تناله

---

(٧١) كمه : عمى والأكمه (المولود أعمى) .

(٧٢) يعقب بعضها بعضا وهى متداولة بين الناس فيوم لنا ويوم علينا ، والمراد أنها لاتستمر على حال .

بدعةٍ ورفق ، إلا وهو أهنأ مما نيلَ بتعبٍ ونصب . فأما من كُفِىَ وعوفى فما يصنع بالغضب والتضايق ؟ وإنها همُّ العُمْر !! ونكد الدهر !! .

وفى ذلك أقول شعراً :

ما تمّ شيءٌ من الدنيـا علـمتُ به ... إلا استُحِقَّ عَلَيْه النقصُ والغِيَرُ [٧٣]
ولا تغيَّـر من قومٍ نعيمُهُـم ... إلا تكـدَّر منـه الـوِرْد والصَّدَرُ [٧٤]
فعاد غمّـا ولـن تلقـى أمـرأً أبـداً ... أَغَـمَّ من ملك حين يفتقـر !!

جزاء من يكذب :

وقال فى الكذب :

كذبَت ومـن يكـذِبْ فإنَّ جزاءَه ... إذا ما أتَى بالصِّدق أن لا يُصَدَّقَـا

لا خير فى كذوب :

وقال فيه أيضا :

اذا ما رأيت المرء حُلْـواً لسانُـه ... كذوبـاً فأيْقِـن أنَّـه لا حَيَـا له
ولا خيرَ فى الإنسان إن لم يكـن له ... حيـاءٌ ، ولا فى كلِّ من لا وفالـه

وقال فى الاخوان :

ليس من كان فى الرخـاء صديقـا ... وعَـدُوَّ الصَّدِيـقِ بعـد الرَّخـاءِ
عُدَّة فى إخائـه لِصَديـقِ ... إنما ذلك عُدَّة الأعـداء
لو ظَفِرْنـا بِذِى إخـاء أمِيـنٍ ... لاشترينـا إخـاءه بالغـلاء
لو وجدنـا أخـاً متينـاً أمينـاً ... لا تخذنـا إخـاءه للشفـاء

مصاحبة الرِّجال :

أما الرُّفقاء فى السفر ، والجلساء فى الحضر ، والخلطاء فى النعم ، والشركاء فى العَدَم ، [٧٥] ، فاحفظ مصاحبتهم ، وواظب على إخائهم .

---

(٧٣) غِيَر الدهر : أحداثه .

(٧٤) الوِرد : الورود على الماء للسقيا ، والصَّدَر الرجوع بعد حمل الماء ويقصد البدء والنهاية .. أوله وآخره .

(٧٥) فى الفقر .

وفى ذلك أقول شعراً :

وكنتَ إذا صحبتُ رجالَ قومٍ صحبتُهمْ وشيمتى الوفاءُ
فأُحسِنُ حين يُحْسِنُ مُحْسِنُوهُمْ وأجتنب الإساءة إن أساءوا
وأبْصِر ما يَعِيبُهُم بعَيْنِ عَليها من عيوبِهُمُ غِطَاءُ
أريد رضاهُمُ أبَداً وآتى مشيئتهم وأترك ما أشاءُ

المبادأة بالشر :

لا تبتدئن أحداً بصغيرٍ مما يكره ولا بكبيره فإن ابتدأك أحدٌ بشيءٍ من ذلك فقدرت على الانتصار منه فعفوت ، أو انتصرت ، فما أحسن جميع ذلك ! إلا أن العفو أكرم والانتصار أعز وكلاهما حظ .

وفى ذلك أقول شعراً :

وأىُّ الناسِ ألأمُ من سَفِيهٍ يقولُ ولا يخافُ من الجوابِ ؟ !

إياك والجهل :

وقال فى الجهل : إياك والجهل ، فإنما تجهل على ثلاثة :
رَجُلٍ أنت أعزُّ منه ورجلٍ هو أعزُّ منك ورجلٍ أنت وهو فى العِزِّ سواء : فأما جهلك على من أنت أعز منه فلؤم ! وأما جهلك على من هو أعزُّ منك فحيفٌ ![76] وأما جهلك على من هو مثلك فهراش مثل هراش الكلبين ![77] ولن يفترقا إلا مقبوحين أو مجروحين ! وليس هذا من فعال الحكماء والعلماء : الحليمُ أرزن ! والجهولُ أنقص !

وفى ذلك أقول شعراً :

ماتمَّ عِلْم ولا حِلْم بلا أدَبٍ ولا تجاهَلَ فى قوم حليمانِ
ولا التجاهل إلا ثوب ذى دنسٍ وليس يلبُسه إلا سفيهان

(٧٦) الحيف : الظلم .

(٧٧) تقاتل .

حُسْن المظهر والمخبر

وقال فى رؤية الرجل وخبره :

إن من الناس من يُعْجِبُك حين تراه ، وتزداد عند الخبرة إعجاباً به .

ومنهم تُبغِضُه حين تراه ، وعند الخبر تكون له أكثر بغضا . ومنهم من يُعْجِبك مَخبرُه ، ولا يعجبك منظره .

ومنهم من يعجبك منظره ، ولايعجبك مخبره .

وفى ذلك أقول شعراً :

ترى بين الرجـــالِ العيــــنُ فضلًا وفيمـــا أضمروا الغبـــن الغبيـــنُ
ولــــونُ الماءِ مشتبـــه ولـــيست تُخَبِّــرُ عن مذاقَتِـــه العُيُـــونُ
فلا تَعْجَــلْ بنُطْــقٍ قبـــل خُبْــــرٍ فعنـــد الخُبْـــر تنصرِم الظنـــونُ

وقال أيضا فى ذلك :

ومـــا صُوَرُ الرجـــالِ بها امتحـــانٌ ومـــا فيها لمعتبِـــــرٍ بيـــــانُ
ولكـــن فعلهُـــمُ يُنَبـــيك عنهمـــو به تجب الكرامـــــــــة والهوانُ
ومـــا الإنسانُ لولا أصغـــراه(٧٨) سوى صُوَرٍ يصورهـــــا البَنَـــانُ

وقال أيضا :

لم أزَلْ أبْـــغِضُ كلَّ امــــرىء وجْهُـــــــــهُ أحْسَنُ من خبره
فهــــو كالـــــغصن يُرِى ناضراً ناعمـــاً يُعْـــجِبُ من زَهْــرِه
ثم يبــــدو بعـــــده ثمر فيكــــــــون السُّمُّ فى ثمره

وقال فى النهى عن القبيح :

وإذا رأيت من أحدٍ أمراً فنهيته عنه فلم يحمدك ، ولم يذم نفسه على مكانه ، أو يُحدثُ حدثاً تعلم أنه قد انتفع بمقالتك ، فإن ذلك عيب آخر قد بدا لك منه ، لعله أقبح من الذى نَهيته عنه .

---

(٧٨) الأصغران : القلب واللسان .

وفى ذلك أقول شعراً :

ولا نهيت غَوِيًّــــا عن غِوايتـــــه   إلا استَــزَادَ كأنى كنت أغْريــه !!
ولا نصحُت له إلا تبيَّـــــن لى   منه الجفاءُ كأنى كنتُ أُغْوِيــه

كيف تكون المؤاخاة ؟

وقال فى المؤاخاة :

لا تُؤَاخِ أحداً إلا على اختيارٍ منك له ، وارتضاءٍ منك به ، واتفاقٍ منه لك[(٨٠)]

فإذا اتفق أمركما كذلك فاعلم أن كليكما يحسن ويسىء ،ويصيب ويخطىء ، ويحفظ ويُضَيِّع[(٨١)]

فوطِّنْ نفسك على الشكر إذا حفظ ، وعلى الصبر إذا أضاع ، وعلى المكافأة إذا أحسن ،
وعلى الاحتمال والمعاتبة إذا أساء[(٨٢)] .

فإن معاتبة الصديق إذا أساء أحبُّ إلى الحليم من القطيعة فى معاشرة من يؤاخيه .

وفى ذلك أقول شعرا :

وإذا عتــبت على امــرىء أحببتَــه   فتــوَق ضائــر عُتْبــه وسبابـــه
وألِــنْ جنــاحك مااستـــلان لُوده   وأجب أخــاك إذا دعــا لجوابـــه

---

(٧٩) الغوىّ : الضال الفاسد وهناك فرق بين الإعواء والإعراء ، فالإعواء بالفساد والإغراء بالخير .

(٨٠) فإن الأرواح جنود مُجَنَّدة .. مابعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف .

(٨١) من ذا الدى ماساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط؟!

ولستَ بِمُسْتَـــبقٍ لا تلُمُّـــه   على شعث أى الرجال المهذَّب ؟!

(٨٢) والمعاتبة تُبْقِي على الوُدّ :

إذا ذهب العتابُ فليــس وُدٌّ   ويبقى الــوُدُّ مابقــى العتــابُ

واحرص على أن تعرف موقعك من كل أحد حتى من أبيك وأمك .

فإن من السخافة أن تكون لأخيك فيما يحب ويكون لك فيما تكره .

وما أقبح أن تكون له فيما يكره ، ويكون لك فيما تحب .

واعلم أن من تنفعك صداقته ، ولا تضرك عداوته ، الكريم الذى :

إن أحسنت إليه كافأك ، وإن أسأت إليه عاتبك .

وأما من تضرك عداوته ، ولا تنفعك صحبته ، فهو الجاهل السفيه اللئيم .

وفى ذلك أقول شعرا :

من النـاس من إن يرض لاتنتفـــع به ... ولكن متى يسخط فما شئت من ضرر
ضعيـفٌ على الأعـداء لكـــن قلبــــه ... أشدُّ إذا لاقى الصديـق من الحجـــر

وقال فى تقلب الدنيا شعراً :

إنما الدنيــــــــــا سراجٌ ... ضوؤه ضوء معـــــــــارْ
بينما غصنُك غضٌ ... ناعـــــمٌ فيــــه اخضرارْ
إذ رمـــاه الدهــــر يومــــاً ... فإذا فيــــه اصفــــــرارْ
وكـــــذاك الليــــــل يأتى ... ثم يمحــــــــــوه النهارْ

فدارهم مادمت فى دارهم

وقال فى المدارة :

إذا هبطت بلداً أهلها على غير ماتعرف ، وأنت على غير مايعرفون ، فالزم كثيراً من المداراة ! ، فما أكثر من دارى ولم يسلم ! ، فكيف بمن لم يكن منه مداراة ؟! .

وفى ذلك أقول شعرا :

ياذا الــذى أصبــح لا والــداً له على الأرض ولا والِــــــدَهْ
قد مات مِن قبلهمـــــا آدم فأى نفسٍ بعـــده خالـــده ؟
إن جئت أرضا أهلهـــا كلهــم عور فغــمض عيــنك الواحـــدة

آخر الدواء الكى :

وقال : لا تقاتلنَّ أحداً تجد من قتاله بُدًّا ، فإنما الحق لمن غلب ، ولا غالب إلا الله ، وإن آخر الدواء الكى ، فلا تجعله أولا .

وفى ذلك أقول شعراً :

وكم رأينا من أخى غِبطَةٍ أصبح مسروراً وأمسى حزيناً
وكم فتى يَرْكَبُ طاحونــةً للحرب قد أصبحَ فيها طحينا

وقال فى الإعسار والإيسار :

كم من صديـقٍ لنـا أيـامَ دولتنَـا وكان يمدحنـا قد صار يهجُونـــا
إنّـى لأعــجبُ مِمَّن كان يَصْحَبُنَـا ما كان أكثرهـــم إلا يراءونـــا
لم نَدْرِ حتى انقضت عَنَّا إمارتنـا من كان ينصحنـا أو كان يُغْوِينَـا
من كان يُنصِفُنَـا ماكان يصحبنـا إلا ليخدعنـا عَمَّـا بأيْدِينـا

وقال فى الصلة والتفضل :

لايكن من وَصَلَك أحقُّ بصلتك منك بِصِلَتِه . ولا من تفضَّل عليك أولى بالتفضل منك عليه . فإنما أنت وهو كرجلين ابتدرا أُكْرُومة فقصَّر أحَدُهما وبلغ الآخر ؛ فأما القاصر فقصر عن خط نفسه ، وأما البالغ فبلغ بجميل أمره وعظيم قدره .

قدرنا !!

وقال فى القدر :

إذا كان الرجل لبيبا فاعلم أنه كامل
ولكن لن يقدمه ذلك إلى ماكان يطالب
ولن يؤخره عما كان يُحَاذِر
إلا بقَدرٍ يلحق به ماطلب
ويسبق به مايحذر

وإن من الناس من يؤتى منطقا وعقلا ، ولا يؤتى مالا ، ومنهم من يؤتى مالا ، ولا يؤتى غيره ؛ فيحتاج مع ماله إلى عقل ذى العقل ومنطقه .

ويحتاج ذو العقلِ إلى مالِ ذى المالِ ورِفدِه(٨٣) .

وينهض هذا بهذا ، وهذا بهذا ؛ فليس لأحدهما غنى عن الآخر .

فأُحْوِجَ الملك إلى السوقة ! ،(٨٤) وأحوجت السوقة إلى الملك !

التَّفَاضُل

وقال فى التفاضل : لا تَقُلْ : فلان أغنى منى ! وأنا أحزم منه ؛ فإنه لو جمع العقل والشدة والشجاعة والمال وأشباه ذلك لقوم ، وبقى قوم لاشيء لهم لهلكوا ، ولكن الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿أهم يقسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ (الزخرف : ٣٢)

فأوتى بعضُهم عقلًا ، وبعضهم قوةً ، وبعضهم مالًا ، مع أشياء مما فيه صلاحهم ، وبه معايشهم ، ثم أحوج بعضَهم إلى بعض فعاشوا .

---

(٨٣) الرِّفد : بكسر الراء المشددة : العطاء .

(٨٤) السُّوقة : العامة من الشعب والرعية تقال للواحد والجمع والمؤنث والمذكر .

وإنما مثل الرجل ورزقه ... ، ومثل عقله وأدبه ومُروءته وحكمه ، كمثل الرامى ورميته ، فلابد للرامى من سهم ، ولابد لسهمه من قوس ، ولابد لقوسه من وتر ، ولابد لجميع ذلك من قدَرٍ يبلغ مارشق . ، ويصيب به مايبلغ ، ويحوز به ماأصاب ، وإلا فلا شيء .

فالرامى الرجل ، والرميّة الرزق ، ولايجمع بينهما عقل ولا عز ، ولا شيء من ذلك إلا بقدر .

وفى ذلك أقول شعرا :

ماالقـوسُ إلا عصاً فى كفٍّ صاحبها   يرعـى بها الضأنَ أو يُرعـى بها البقَـرُ
أو عود بانٍ وإن كانت معقفـــــــةً   حتـــى يضمَّ إليها السهـــمُ والوتـــر
وإن جمعت لها هذيـــن فهـــى عصاً   حتى يساعـد من يرمى بها القـــدرُ

أخلاق الأتقياء وأخلاق الأشقياء

وقال : إن حسن السَّمت[٨٥] ، وطول الصمت ، ومشى القصد من أخـلاق الأتقياء !

وإن سوء السَّمْت ، وترك الصمت ، ومشى الخُيلاء من أخلاق الأشقياء !

فإذا مشيتَ فوق الأرض فاذكر مَن تحتها !! وكيف كانوا فوقها ؟! وكيف حلُّوا بطنها ؟! ، وكيف كانوا أمما ؟!

واعلم أن ابن آدم أعزُّ من الأسد ، وأشدّ من العَمَد ،[٨٦] مالم تُصِبْه أدنى شوكة وأدنى مرض ، وأدنى مصيبة فإذا أصابه شيء من ذلك وجدته أهوَن من الذَّرة،[٨٧] وأمْهن[٨٨] من البعوضة ! .

---

(٨٥) السَّمت : الهيئة والشكل العام .

(٨٦) العمد : الأعمدة .

(٨٧) الهباء : الذى يرى فى الشمس ويضرب به المثل فى الصغر والهوان ، ولقد أصبحت الذرة أخطر ما فى الوجود عند انشطارها !!

(٨٨) وأمهن من المهانة والحقارة .

فلا يغررك تجبُّره وتَكَبُّره ، وتفرعُنُه واستطالته .

وفى ذلك أقول شعرا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعـا فكـم تحتها قوم هُمُ منك أرفـعُ
فإن كنتَ فى عزٍّ وحِـرزٍ ومَنْعَـةٍ فكـم طاحَ من قوم هم منك أمنعُ[٨٩]

الغنى والقنوع

قال فى الغنى والقنوع :

إن الغنى فى القلب ، فمن غنيت نفسه وقلبه غنيت يداه ! ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه !

وفى ذلك أقول شعرا :

إذا المرءُ لَمْ يَقْنَـعْ بِشَىءٍ فإنـه وإن كان ذا مالٍ من الفقـرِ موقَـرُ
إذا كان فضلُ الله يغنـيك عَنْهـمُ فأنت بفضلِ الله أغنـى وأيْسَرُ

الرأى والمشاورة

وقال فى الرأى والمشاورة :

إذا استشير نفر أنت أحدهم ، فكن آخر من يشير ...

فإنه أسلمُ من الصَّلَف[٩٠] وأبْعدُ لك من الخطأ وأمْكَنُ لك من الفِكرِ وأقرب لك من الحَزْم .

وفى ذلك أقول شعرا :

ومن الرجالِ إذا زكت أحلامُهم[٩١] من يستشار إذا استشير فيُطْـرِقُ
حتـى يجولَ بكـلِّ وادٍ قلبُـه فيرى ويعـرف مايقـول فينطـقُ

(٨٩) المنعة : الحصانة .

(٩٠) الصلف : الكبر والزهو على غيره .

(٩١) أحلامهم : عقولهم .

فبــذاك يُطْلَــق كل أمــرٍ مُوثَــق   وبــذاك يوثــق كلُّ أمــرٍ مُطْلَــق
إن الحليــم إذا تَفَكَّــرَ لم يَكَــد   يخفى عليــه من الأمــورِ الأوفــقُ

مجالسة أهل الأهواء والبدع

وقال فى النهى عن مجالسة أهل الأهواء والبدع ومحادثتهم :

أما هذه الأهواء فإنى لم أر أحداً ازداد فيها بصيرة إلا ازداد عمى ! ، لأن أمرَ الله أعزُّ من أن تلحقه العقول .

ولم أراثنين تكلما فيها إلا رأيت لكل واحد منهما حجة ، لايقدر صاحبه على دفعها إلا بالشبهة والمغالطة ، وأما بالنصيحة فلا . ومن غالط فى هذا أو مثله ، فإنما يغالط نفسه .. وعليها يخلط .. وإياها يخدع .

أو أراد أن يخادعَ ربَّه ، والله أعزُّ من أن يُخْدَعَ لقد نُبِّئْت أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه موسى ﷺ :

لا تجادل أهل الأهواء ؛ فيوقعوا فى قلبك شيئا يوردك به إلى النار !

فهذا أمر نُهى عنه موسى عليه السلام ، وقد أعطى التوراة فيها هدى الله ، وقد كلم الله موسى تكليما .فكيف بغيره من أهل الأهواء .

ولم يزل الصالحون يتناهون عن الهوى والمراء فيه ، والجدل به . ولم أر قياساً قطُّ تمَّ ، ولا كلاماً صحَّ ، إلا وفيه كلام بعد كثير . فالسنة أن لا يتكلم فى شيء من الأهواء بالهوى ، وبغير الاتباع للكتب المنزلة ، والسنن للرسل الصادقة .

وفى ذلك أقول شعرا :

إذا أعطى الإنسان شيئا من الجدل   فلم يُعْطَه إلا لِكَىْ يَمْنَعَ العمــلْ
وماهــذه الأهــواءُ إلا مصائبٌ   يُخَصُّ بها أهلُ التعَمُّــقِ والْجَــدَل

النميمة

وقال فى النميمة :

إياك والنميمة ؛ فإنها لاتترك مودة إلا أفسدتها ولا عداوةً إلا جدَّدَتْها ولا جماعةً إلا بدَّدَتْها ولا ضغينةً إلا أوقَدَتْها . ثم لابُدَّ من عُرِفَ بها أو نسِبَ إليها أن يُتَحفَّظَ من مجالسته ولا يُؤْتى بناحيته وأن يُزْهَدَ فى مناقَشَتِه وأن يُرْغَبَ عن مُوَاصَلَتِه .

وفى ذلك أقول شعرا :

تمشَّيْتَ فينــــا بالنّـــــميم وإنما يُفَــرِّق بين الأصفيــاءِ النمائــمُ
فلا زلت منسوبــاً إلى كلِّ آفــةٍ ولازال منسوبــاً إلـيك اللوائــمُ

وفى مثله أقول :

كالسَّيْلِ فى اللَّيـلِ لايَـدْرِى به أحَـدٌ مِنْ أين جاء ولا مِنْ أيْــنَ يأتيــه ؟
فالويـل للعبـد منه كيــف ينــقصه والويـل للعبـد منـه كيـف يبليــه ؟

الكلام

وقال : إذا قيل لك : أى شيء أطول ؟ فقل الكلام .

وإذا قيل لك : أى شيء أقصر ؟ فقل الكلام ؛

لأن الكلمة الواحدة قد تكون جوابا لألف كلمة ، وقد يكون جوابها ألف كلمة وأكثر .

ولن تدرك الكلام حتى تذره ، ولن تذره حتى تحذره وفى القول خطأ كثير ، وبعضه صواب ، وإن الصمت منه لأصوبه ، فاترك منه ما لا تنتفع بأخذه وخذ منه مالا تقدر على تركه واسجن لسانك كما تسجن عدوك واحذره كما تحذر غائلته .

تأديب النفس

وقال فى تأديب النفس :

إذا أبصرتَ بعضَ ماتكره من غَيْرِكَ فأسْرِعْ الرَّجْعَةَ قبل أن يبصره منك من يستريبه .

واحْمَدِ الله الذى أحْسَنَ إليك ، وبصَّرَك عُيوبَ نَفْسِك ، ونَبَّهك للرجوعِ من غَيِّك .

وإذا أخبرك بعيبِك صديق ، قبل أن يخبركَ به عدو ، فأحْسِن شكرَه ، واعرف حَقَّه ؛ فإن خير العدو تَعْيِيب وخير الصديق تأديب .

وفى ذلك أقول شعرا :

ولـــن يَهْـــلِكَ الإنسانُ إلا إذا أتى   من الأمـــر مالم يَرْضه نصحـــاؤه

فى الحاسدين

وقال فى الحاسدين :

اعلم أنك لن تَلْقَى مِنَ الْخَيْر دَرَجَة ، ولن تَبْلُغ منه مرتَبة ولن تنزل منه منزلا ، إلا إذا وجدت فيه من يحسدُك وإنما الحاسد خَصْمٌ فلا تجعلْه حَكَماً فإنه إن حكم لم يحكم إلا عليك وإن قصد لم يقصد إلا إليك وإن دفع لم يدفع إلا حقَّك .

وفى ذلك أقول شعرا :

ولو كنت مثل القِدْح ألفيت قائلا   ألا ماهذا القـــدح ليس بقـــائم

ولو كنت مثل النصل ألفيت قائلا   ألا ماهذا الـــــنصل ليس بصارم

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

الرسالة الثانية

ذكر الحث على إقامة المروءات

ومع ابن جناح حلقنا ..
فى سماء المروءة .. وهناك قالت :
هات الثانية .. ترى من أين جئت بها ؟
قلت : من «روضة العقلاء ، ونزهة الفضلاء»
للإمام الحافظ أبى حاتم محمد بن حبان البستى
المتوفى سنة ٣٥٤ من الهجرة .. قالت
أولئك آبائى فجئنى بمثلهم !!
قلت : لك ماشئت وأكثر !!

لابن حِبان البُستى

ذكر الحث على إقامة المروءات

* حدثنا إسحاق إبراهيم بن إسماعيل القاضى ، وعبد الله بن محمود بن سليمان السعدى قالا : حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكى حدثنا مسلم ابن خالد الزنجى عن العلاء بن الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ **«كرمُ الرجل دينُه ، ومروءتُه عقلُه ، وحسبُه خلُقُه»** .

* قال ابو حاتم رضى الله عنه : صرح النبى ﷺ فى هذا الخبر بأن المروءةَ هى العقلُ : اسم يقع على العلم بسلوك الصوابِ واجتنابِ الخطأ .

فالواجب على العاقل : أن يلزم إقامة المروءة بما قَدَر عليه من الخصال المحمودة ، وترك الخلال المذمومة .

وقد نبغت نابغة اتَّكلوا على آبائهم ، واتكلوا على أجدادِهم ، فى الذكر والمروءات ، وبَعُدوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد فى ذَمِّ مَنْ هذا نعتُه :

إن المروءة ليس يُدركها امرؤ ورثَ المروءة عن أبٍ ، فأضاعها
أمَرتْه نفس بالدناءة والخنا [٩٢] ونهته عن طلب العلى فأطاعها
فإذا أصاب من الأمور عظيمة يبنى الكريمُ بها المروءةَ باعها

وأنشدانى محمد بن إسحاق :

خساسةُ أخلاق الرجالِ تَشينُهم وقلّ غناءً عنهمُ النسبُ المحضُ [٩٣]

---

(٩٢) الخنا : الفحش فى الكلام والعيب .

(٩٣) النسب المحض : الخالص المجرد عن اعتبارات أخرى لايغنى عن صاحبه «يافاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا» ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾

يصولون بالآباء فى كل مَشْهد | وقد غَيَّبت آباءَهم عنهمُ الأرضُ
طويلٌ تَبدِّيهم بمجـدِ أبيهمُ | ومالهُم فى المجد طول ولا عرض(٩٤)

وأنشدنى الحسين بن أحمد البغدادى :

ليس الكـــريم بمن يُدَنِّس عِرضَه | ويرى مُروَءتـه تكـون بمن مَضى
حتـى يَشيـدَ بنـاءه ببَنَانـه | ويزينَ صالحَ ما أتوه بما أتى(٩٥)

قال أبو حاتم رضي الله عنه : مارأيت أحداً أخسر صفقةً ، ولا أظهرَ حسرةً ، ولا أخيبَ قصداً ، ولا أقلّ رشداً ، ولا أحمقَ شعاراً ، ولا أدنسَ دِثاراً (٩٦) ، من المفتخر بالآباء الكرام وأخلاقهم الجسام ، مع تَعَرِّيه عن سلوك أمثالهم ، وقصد أشباههم ، متوَهِّماً أنهم ارتفعوا بمن قبلهم ، وسادوا بمن تقدمهم ، وهيهات ! أنَّى يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه ؟ وأنَّى يَنْبُل فى الدارين إلا بكَدِّه ؟

ولقد أنشدنى البسامى :

وكم قائلٍ : إنى ابنُ بيتٍ ، هو ابنُه | وقد هدم البيت الذى مات عامرُه
فأودى عَمـودَاه ، ورثَّت حِبالـه | وأصلـحَ أولاهُ ، وأفسد آخـرهْ

وأنشدنى الأبرش :

فإن قلتَ : لى آباء صدق ومنصبٌ | كريم وإخـوانٌ مضت وجـدودُ
صدقتَ ، ولكن أنت هدَّمت مابَنَوْا | بكفك عمـداً ، والبنـاء جديـدُ

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

إن لم تكـن بِفَعـال نفسك سامياً | لم يغن عنك سُمـوٌّ من تسمـو به
ليس القـديم على الحديث براجـعٍ | إن لم تجدْه آخـذا بنصيبـه
ولـربما اقتـرب البعيـدُ بوُدِّه | وغدا القـريب مباعـداً لقريبـه

---

(٩٤) وعلى المرء أن يكون عصاميا كما يقول القائل :

نفس عصامٍ سوَّدَت عصامـا | وعلمتـه الكـرَّ والإقدامـا

أما العظاميون الذى يفخرون بعظام الآباء فلا وزن لهم بغير عمل يرفع قدرهم .

(٩٥) البنان : أطراف الأصابع ومفردها بنانه ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (الأنفال : ١٢) ﴿بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ (القيامة : ٤) والمراد بقوله : يشيد بناءه ببنانه العمل الجاد بيديه وهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

(٩٦) الدثار : الثوب الذى يستدفأ به من فوق الشعار ، وما يتغطى به ﴿يأيها المدثر قم فأنذر﴾ .

* أنبأنا الحسين بن محمد بن مصعب السنجي حدثنا أبو داود السنجي حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال : لا دينَ إلا بمروءة .

كيفية المروءة

* قال أبو حاتم رضى الله عنه : اختلف الناس فى كيفية المروءة :

* فمن قائل قال : المروءة ثلاثة : إكرام الرجل إخوانَ أبيه ، وإصلاحُه ماله ، وقعودُه على باب داره [٩٧] .

* ومن قائل قال : المروءة : إتيان الحق ، وتعاهُدَ الضيف .

* ومن قائل قال : المروءة : تقوى الله ، وإصلاحُ الضَّيْعة ، والغداء والعشاء فى الأفنية .

* ومن قائل قال : المروءة : إنصاف الرجل مَنْ هو دونَه ، والسموُّ إلى من هو فوقه ، والجزاء بما أُتِى إليه .

* ومن قائل قال : مروءة الرجل : صدق لسانِه ، واحتمالُه عَثَراتِ جيرانِه ، وبذلُه المعروفَ لأهل زمانِه ، وكَفُّه الأذى عن أباعِده وجيرانِه .

* ومن قائل قال : إن المروءةَ : التباعدُ من الخُلق الدَّنِيِّ فقط .

* ومن قائل قال : المروءة : أن يعتزل الرجل الريبةَ ؛ فإنه إذا كان مريباً كان ذليلًا ، وأن يُصلحَ مالَه ؛ فإن من أفسد ماله لم يكن له مروءة ، والإبقاءُ على نفسه فى مطعمه ومشربه .

* ومن قائل قال : المروءة : حسنُ العشرة ، وحفظُ الفرج واللسانِ ، وتركُ المرءِ مايُعابُ منه .

* ومن قائل قال : المروءة : سَخَاوة النفس ، وحسنُ الخلق .

---

(٩٧) يقصد أنه داره مفتوحة ، وهو فى حالة تأهب لاستقبال القاصدين ، فلا يستخفى من الناس بخلا ، ولكنه يقعد على باب داره شهامة وكرما .

* ومن قائل قال : المروءة العِفّة والحِرْفة ، أى يَعفُّ عما حرم الله ، ويحترف فيما أحل الله .

* ومن قائل قال : المروءة : كثْرَة المالِ والولد .

* ومن قائل قال : المروءةُ : إذا أعطيتَ شكرتَ ، وإذا ابْتُليتَ صبرتَ ، وإذا قدرتَ غَفرْت ، وإذا وعدْت أنجزتَ .

* ومن قائل قال : المروءة : حسن الحيلة فى المطالبة ، ورقة الظّرف فى المكاتبة .

* ومن قائل قال : المروءة : اللطافَة فى الأمور ، وجودةُ الفِطنة .

* ومن قائل قال : المروءة : مجانبة الرِّيبة ؛ فإنه لا ينبُل مُريب ، وإصلاحُ المال ؛ فإنه لاينبل فقيرٌ ، وقيامُه بحوائِج أهلِ بيته ؛ فإنه لا ينبُل من احتاج أهل بيته إلى غيره .

* ومن قائل قال : المروءة : النظافَة ، وطيب الرائحة .

* ومن قائل قال : المروءةُ : الفصاحَة والسماحَة .

* ومن قائل قال : المروءة : طلبُ السلامة ، واستعطافُ الناسِ .

* ومن قائل قال : المروءة : مراعَاة العهودِ ، والوفاءُ بالعقودِ .

* ومن قائل قال : المروءةُ : التذلل للأحباب بالتملق ، ومداراةُ الأعداء بالترفق .

* ومن قائل قال : المروءة : مَلاحةُ الحركِة ، ورقةُ الطَّبع .

* ومن قائل قال : المروءة : هى المفاكهة ، والمباسمة :

* حدثنا الحسن بن سفيان حدثنا سويدين بن سعيد حدثنا مسلم بن عبيد أبو فراس قال : قال ربيعة : المروءة مروءتان : فللسفر مُروءة ، وللحضَر مروءة :

فأما مروءة السفر فبذْلُ الزَّادِ ، وقلةُ الخلافِ على الأصحاب ، وكثرة المِزاح فى غير مَسَاخط الله .

* وأما مروءة الحَضرِ : فالإدْمَانُ إلى المساجد ، وكثرة الإخوانِ فى الله ، وقراءةُ القرآن .

* قال أبو حاتم رضى الله عنه : اختلفت ألفاظُهم فى كيفية المروءة ، ومعانى ماقالوا قريبة بعضُها من بعض .

والمروءة عندى خصلتان : اجتناب مايكره الله والمسلمون من الفِعال ، واستعمالُ مايحب الله والمسلمون من الخصال .

وهاتان الخصلتان يأتيان على ماذكرنا قبلُ من اختلافهم ، واستعمالها هو العقل نفسه ، كما قال المصطفى ﷺ «إن مروءة المرء عقلُه» .

ماذا يعين الإنسان على إقامة المروءة ؟

ومن أحسن مايستعين به المرء على إقامة المروءة : المال الصالح .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد الكريزى :

احتـــل لنـــــفسك أيها المحتـــالُ فمـــــــن المروءة أن يُرَى لك مالُ
كم ناطـــق وسطَ الرجـــال ، وإنما عنهم هنـــاك تكلَّـــمُ الأمـــوالُ (٩٨)

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يُقيم مروءته بما قدر عليه ، ولاسبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رُزق ذلك وضَنَّ بإنفاقه فى إقامة مروءته فهو الذى خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمنُ أن تفجأه

(٩٨) احتل : الجأ إلى وسائل الكسب الشريف ولاتكسل ، فإذا أخفقت إحدى الوسائل فالجأ إلى أخرى فى إطار الدين ، فالمال كما يقول شوق : «يامال ، الدنيا أنت ، والناس حيث كنت» .

ويقول آخر :

فهو اللسان لمن أراد فصاحة وهو السلاح لمن أراد قتالا

المنية فتسلبه عمّاملك كريها ، وتودعه قبرا وحيدا . ثم يرث المال بعد من يأكله ولايحمده ، وينفقه ولا يشكره ، فأى ندامه تشبه هذه ؟ وأى حسرة تزيد عليها ؟

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى :

ياجامع المالِ فى الدنيا لوارثِه هل أنت بالمال قبل الموت منتفعُ ؟
قدّم لنفسك قبلَ الموت فى مَهَلٍ فإنّ حظَّك بعد الموتِ منقطعُ

* أنبأنا المفضل بن محمد الجندى — بمكة — حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطّبرى حدثنا أزهر عن ابن عون عن ابن سيرين قال : ثلاثة ليست من المروءة : الأكل فى الأسواق ، والادّهان عند العطار ، والنظر فى مرآةِ الحجّام[٩٩]

* حدثنا محمد بن إسحاق الثقفى حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى حدثنا هُشَيْم عن مغيرة عن الشعبى قال : ليس من المروءة النظر فى مرآة الحجام .

* حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن العمى ببغداد حدثنا الصلت بن مسعود حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب قال : سمعت أبا قلابة يقول : ليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه .

وأنشدنى البسامى :

اعلم بأنك — لا أبالك — فى الذى أصبحت تجمعُه لغيرك خازنُ[١٠٠]
إنَّ المنيَة لاتؤامِر مَنْ أتت فى نفسه يوما ، ولا تستأذنُ[١٠١]

* أنبأنا عمر بن محمد حدثنا الغلابى حدثنا ابن عائشة عن أبيه قال : كان

يقال : مجالسَة أهل الديانة تجلو عن القلب صَدَأ الذنوب ، ومجالسةُ ذوى المروءات تدل على مكارم الأخلاق ، ومجالسَة العلماء تذْكى القلوب .

---

(٩٩) ومازال أهل المروءة يتحرجون — إلى اليوم — من ممارسة مثل هذا خارج بيوتهم .

(١٠٠) لا أبالك : جملة دعائية تستعمل للبحث والتنبيه .

(١٠١) لاتؤامر : لاتنتظر أمره أو إذنه . والمنية الموت .

آفة المروءة :

* حدثنى محمد بن أبى على الخلادى حدثنا أبو أحمد بن حماد البربرى عن سليمان بن أبى شيخ حدثنا محمد بن الحكم عن عوانة قال : قال معاوية بن أبى سفيان : آفة المروءة إخوانُ السوء .

* قال أبو حاتم رضى الله عنه : والواجب على العاقل تفقُّد الأسباب المستحقرة عند العوام من نفسه حتى لايَثْلَم(١٠٢) مروءته ؛ فإن المحقراتِ من ضد المروءات تؤذى الكامل فى الحال بالرجوع فى القهقرى إلى مراتب العوام وأوباش الناس(١٠٣)

مواطن الذل :

ولقد حدثنا جعفر بن محمد الهمرانى — بصور — قال : سمعت طلحة بن اسحاق بن يعقوب قال : سمعت موسى بن إسحاق الأنصارى يقول : سمعت على بن حكيم الأودى يقول : سمعت شريكا يقول : ذل الدنيا خمسة : دخول الحمام سَحَراً بلا كرنيب(١٠٤) ، وعبور المعبر بلا قطعة ، وحضور مجلس العلم بلا نسخة ، وحاجة الشريف إلى الدنىّ ، وحاجة الرجل إلى امرأته .

حدثنا أبو شعبة الحسن بن محمد الاصطخرى حدثنا عبد الرحمن بن محمد ابن منصور ، حدثنا محمد بن عبد العزيز الرملى ، حدثنا رشدين بن سعد ، حدثنا طلحة بن زيد عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : «من قلة مروءة الرجل نظره فى بيت الحائك ، وحمله الفلوس فى كُمه» .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١٠٢) الثلمة فى الحائط وغيره : الخلل ، وثلَمْت الإناء : كسرته .

(١٠٣) أى أخلاطهم وسفلتهم ووبش الكلام الردىء .

(١٠٤) الظاهر : أنه أراد إناء يغرف به ، وفى مدينة حلب من سوريا يستعمل هذا اللفظ لإناء على شكل مخصوص معد لغرف الجامدات من بر ونحوه ؛ وذلك حتى لا يلوث الماء ويحسه

الرسالة الثالثة

معنى المروءة وما يتصل بها

قالت :

كان « ابن حبان » من أئمة رجال الحديث . قلت : والماوردى من أئمة الفقهاء ، وهذه الرسالة إحدى روائع « أدب الدنيا والدين » ..

قالت : أهلا بصاحب التآليف الاسلامية وأكبر فقهاء الشافعية ، وأبرز رجال السياسة فى الدولة العباسية ..

أهلا بسفير دولته عند بنى بويه

قلت : وإنه لسفيرنا إليك من عند أهلك فى البصرة وبغداد ونيسابور » .

لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

في المروءة

معنى المروءة : اعلم أن من شواهد الفضل ، ودلائل الكرم : المروءة ، التي هي حِلية النفوس ، وزينة الهِمم ، فالمروءة مُراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها[١٠٥] حتى لا يظهرَ منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجّه إليها ذمّ باستحقاق . رُوِى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عاملَ الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلَم يَكْذِبهم ، ووعدهم فلم يُخْلِفهم فهو ممن كَمُلت مُروءته ، وظهرَت عدالته ، ووجبت أخوته » . وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة : أن يتعفّف عن الحرام ، ويتصلف[١٠٦] عن الآثام ، وينصِف في الحكم ، ويكفّ عن الظلم ، ولا يطمَع فيما لا يستحق ، ولا يستطيلَ على من لايَسترِق ، ولا يُعِينَ قويا على ضعيف ، ولا يؤثرَ دَنيًّا على شريف ، ولا يُسِرَّ ما يَعْقُبه الوِزرُ والإثم ، ولا يفعلَ ما يُقَبِّح الذكر والاسم .

وسُئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة ؟ فقال : العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمُرك بالأجمل . ولن تجدَ الأخلاق على ماوصفنا من حدّ المروءة منطبعة ، ولا عن المراعاة مستغنية ، وإنما المراعاة هي المروءة ، لا ما انطبعتْ عليه من فضائل الأخلاق ، لأن غُرور الهوَى ، ونازع الشهوة يصرفان النفسَ أن تركبَ الأفضل من خلائقها ، والأجملَ من طرائقها ، وإن سلمت منها ، وبعيدٌ أن تسلَم إلا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعا ، واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبُّعا .

وقال الشاعر :

من لك بالمحضِ ولـيسَ محضٌ ... يخْبُثُ بعضٌ ويطـيب بعضُ

---

(١٠٥) المراد : أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هى المروءة .

(١٠٦) يتصلف : يترفع .

ثم لو استكمل الفضلَ طبعا ، وفى المُعْوِز أن يكون مُستَكمَلا ، لكان فى المستحسن من عادات دهره ، والموضوع من اصطلاح عصره ، من حقوق المروءة وشروطها ، مالا يتَوَصَّل إليه بالمعاناة ، ولا يُوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة ، فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها : هي المروءة ، وإذا كانت كذلك ، فليس ينقاد لها مع ثِقَل كُلَفها ، إلاّ من تسهَّلَتْ عليه المشاقّ ، رغبة فى الحمد ، وهانت عليه الملاذّ ، حذرا من الذمّ ، ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم .

وقال أبو تمام الطائيّ :

والحمدُ شهدٌ لا يُرَى مُشتارُهُ ... يَجنيه إلاّ من نَقيع الحنظلِ[107]
غُلٌّ لحامِلِه ويحسبه الذى ... لم يُوهِ عاتقَه خفيفَ المَحْمَلِ

وقد لَحَظ المتنبى ذلك فى قوله :

لولَا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهمُ ... الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

وله أيضا :

وإذَا كانتِ النفوسُ كِباراً ... تعبتْ في مُرادها الأجسامُ

علو الهمة : والداعى إلى استسهال ذلك شيئان : أحدهما عُلُوّ الهمة ، والثاني : شرف النفس ، أما علوّ الهمة ، فلأنه باعث على التقدُّم ، وداع إلى التخصيص ، أنفَه من خمول الضَّعة ، واستنكاراً لمَهانة النقص ، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحبُّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره دَنِيّها وسَفْسافها » . ورُوِى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا تصغُرن همَمكم ، فإنى لم أر أقعد عن المكرُمات من صِغَر الهِمم . وقال بعض الحكماء : الهمة راية الجدّ . وقال بعض البلغاء : علو الهِمَم بذْر النِّعم . وقال بعض العلماء : إذا طلب رجلان أمرا ، ظفِر به أعظمهما مُروءة . وقال بعض العلماء : من ترك التماسَ المعالى بسوء الرجاء ، لم ينلْ جسيما .

---

(١٠٧) يقال : شُرْتُ العسلَ : جنيتهُ ، والمشار : الحانى .. ويقال إن منه أخذت المشورة فقد شبه حسن النصيحة بشرب العسل .

شرف النفس : وأما شرف النفس ، فإن به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب ، لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهى به عارفة ، ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة ، لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، فتصير منه أنفر ، ولضدّه الملائم آثر وقد قيل : ما أكثر من يَعرف الحقّ ولا يطيعه ! وإذا شَرُفت النفس كانت للآداب طالبة ، وفى الفضائل راغبة ، فإذا مازجَها صارت طبعا ملائما ، فنما واستقرّ ، فأما من مُنِىَ بعلوّ الهمة وسُلِبَ شرف النفس ، فقد صار عُرْضة لأمر أعوزته آلته ، وأفسدته جهالته ، فصار كضرير يروم تعلم الكتابة ، وأخْرَسَ يريد الخُطبة ، فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزا ، والطلب إلا عَوَزا ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ما هَلَكَ امرؤٌ عَرَف قدرَه » .

وقيل لبعض الحكماء : مَنْ أسوأ الناس حالا ؟ قال : من بَعُدت هِمته ، واتسعت أُمنيته ، وقَصَّرت آلته ، وقلَّت مقدرته[١٠٨] .

وقال أُفنون التَّغْلبيّ :

ولا خيرَ فيما يكـذبُ المرءُ نفسَهُ ... وتَقوالِـهِ للشيء يالـيتَ ذاليَـا[١٠٩]
لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى ... إذا هُوَ لم يجعـل له الله واقيـا

وقال بعض الحكماء : تجنبوا المُنَى ، فإنها تذهَب ببهجة ما خُوّلتم ، وتستصغرون بها نعمة الله عليكم .

وقيل فى منثور الحكم ، المُنَى من بضائع النَّوْكى[١١٠] ، فإن صادف بهمته حظّا نال به أمَلا ، كان فيما ناله كالمغتصب ، وفيما وصل إليه كالمتغلّب ، إذ ليس فى الحظوظ تقدير لحقّ ولا تمييز لمستحقّ ، وإنما هى كالسحاب الذى قد تمسك عن مَنابت الأشجار ، إلى مَغاوص البحار ، وينزل حيث صادف من خبيث وطيب ، فإن صادف أرضا طيبة نفع ، وإن صادف أرضا خبيثة ضرَّ ، كذلك الحظّ إن صادف نفسا شريفة نفع ، وكان نعمة عامة ، وإن صادف نفسا دنية ضرّ ، وكان نقمة طامَّة .

(١٠٨) من أمثال أولئك الذين يعيشون سعداء بأحلام اليقظة .
(١٠٩) تقوا له : قوله . ذاليا . هذا لى . فما نيل المطالب بالتمنى .
(١١٠) النوْكى : جمع أنوك على وزن أنور وهو الأحمق .

حُكِى أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب ، فأوحى إليه : قد ملّكتُ سِفْلَتَهَا عَلَى عِلْيَتِهَا ، فقال : يارب ، كنت أحبُّ لهم عذابا عاجلا ، فأوحى الله تعالى إليه : أليس هذا كلَّ العذاب العاجل الأليم ؟ !

فأما شرف النفس إذا تجرد عن علو الهمة ، فإن الفضل به عاطل ، والقدْر به خامل ، وهو كالقوة فى الجَلْد(١١١) الكَسِل ، والجبان الفَشِل ، تضيع قوَّته بكَسله ، وجَلَدُه بفَشَله ، وقد قيل فى منثور الحكم : من دام كسله ، خاب أمله ، وقال بعض الحكماء : نكح العجز التوانى فخرج منهما الندامة ، ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان . وقال بعض الشعراء :

إذا أنتَ لم تعرف لنفسكَ حقَّها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسَكَ أكرمها وإن ضاق مَسْكَنٌ ... عليك لها فاطلب لنفسك مَسْكَنا
وإياكَ والسكنَى بمنزل ذِلَّةٍ ... يُعَدّ مُسيئاً فيه من كان مُحْسِنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى ، من علوّ الهمة مع دناءة النفس ، لأن من علت همته مع دناءة نفسه ، كان متعدّيا إلى طلب مالا يستحقّه ، ومتخطيا إلى التماس مالا يستوجبه ، ومن شرفت نفسه مع صغر همته ، فهو تارك لما يستحقّ ، ومقصرٌ عما يجب له ، وفضل ما بين الأمرين ظاهر وإن كان لكل واحد منهما من الذم نصيب .

وقد قيل لبعض الحكماء : ما أصعبُ شيء على الإنسان ؟ قال : أن يعرف نفسه ، ويكتم الأسرار ، فإذا اجتمع الأمران ، واقترن بشرف النفس علوّ الهمة ، كان الفضل بها ظاهرا ، والأدب بهما وافرا ، ومشاقّ الحمد بينهما مُسَهَّلة ، وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين بن المنذر الرَّقاشىّ :

إن المروءةَ ليس يدركُها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعَها
أمرتْهُ نفسٌ بالدناءة والخنَا ... ونهتْه عن سُبُل العُلا فأطاعَها
فإذا أصابَ من المكارم خَلّة ... يَبنى الكريمُ بها المكارمَ باعَها

---

(١١١) الجَلْد : القوى .

حقوق المروءة : واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تُحصَى ، وأخفى من أن تظهر ، لأن منها ما يقوم في الوهم حِسّاً ، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حَدْسا[112] ، ومنها ما يظهر بالفعل ، ويخفى بالتغافل ، فلذلك أعوز استيفاء شروطها ، إلا جُمَلا يتنبه الفاضل لها ليقظته ، ويستدل العاقل عليها بفطرته ، وإن كان جميع ماتضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها محصورا فى تقسيم جامع ، وهو ينقسم قسمين :

أحدهما شروط المروءة فى نفسه . والثانى شروطها فى غيره .

فأما شروطها فى نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ، فيكون بثلاثة أمور : وهى العفة ، والنزاهة ، والصيانة .

العفة

فأما العفة فنوعان : أحدهما العفة عن المحارم والثانى العفة عن المآثم ، فأما ضبط الفرج عن الحرام ، فلأن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل ، مَعَرّة فاضحة وهَتْكة واضحة ، ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « من وُقىَ شَرَّ ذَبْذبه ولَقْلَقه وقَبْقبه فقد وُقِي » يُريد بذبذبه : الفرج ، وبلَقْلقه : اللسان ، وبقَبْقبه البطْن ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحبّ العفاف إلى الله تعالى عفاف الفرج والبطن » وحُكِى أن معاوية رضى الله عنه سأل عَمْراً عن المروءة ، فقال : تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم .

وسأل المغيرة فقال : هى العفة عما حرم الله تعالى ، والحِرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال : هى الصبر على البلوى ، والشكر على النُّعْمَى ، والعفوُ عند القدرة . فقال معاوية : أنت منِّى حقا .

وقال أنوشرْوان لابنه هُرْمُز : مَنِ الكامل المروءة ؟ فقال : مَن حصَّن دينه ، ووصل رحمه ، وأكرم إخوانه . وقال بعض الحكام : من أحب المكارم ، اجتنب المحارم . وقيل : عار الفضيحة يكدِّرها لذتها .

---

(١١٢) الحدْسَ : الظن المؤكد . المصباح المير .

وقد أنشدني بعض أهل الأدب ، للحسن بن عليّ رضي الله عنهما :

الموتُ خير من ركـــوبِ العـــارِ والعـار خير من دخـــول النـــارِ

والله من هذا وهذا جاري

والداعي إلى ذلك شيئان : أحدهما : أرسال الطَّرْف[113] ، والثاني : اتباع الشهوة ، وقد رُوى عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أنه قال لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه « يا عليّ لا تُتْبع النظرةَ النظرة ، فإن الأولى لك ، والثانيةَ عليك » وفي قوله : لا تتبع النظرة النظرة تأويلان :

أحدهما : لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك .

والثاني : لا تتبع الأُولى التي وقعت سهوا بالنظرة الثانية التي تُوقِعها عمْدا .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : إياكم والنظرةَ بعد النظرة ، فإنها تزرع في القلب الشهوة ، وكفى بها لصاحبها فِتنة . وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : العيونُ مصايِد الشيطان . وقال بعض الحكماء : من أرسل طرفه ، استدعى حتفَه . وقال بعض الشعراء :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائدا لقلـبك يومـا أتعبـتكَ المناظـرُ

رأيتَ الـذي لا كلّـــه أنت قادر عليـــه ولا عن بعضه أنتَ صابـرُ

وأما الشهوة فهي خادعة العقول ، وغادرة الألباب ، ومُحَسِّنة القبائح ، ومُسولة الفضائح ، وليس عطَبٌ إلاَّ وهي له سبب وعليه ألب ، ولذلك قال النبيّ عليه الصلاة والسلام : « أربع مَنْ كُنَّ فيه وجبت له الجنة ، وحُفِظ من الشيطان : مَن ملك نفسه حين يرغب ، وحين يرهب وحين يشتهي ، وحين يغضب» .

وقهرها عن هذه الأحوال ، يكون بثلاثة أمور :

أحدهما : غض الطَّرْف عن إثارتها ، وكفه عن مساعدتها ، فانه الرائد المحرك ، والقائد المُهْلِك . رَوَى سعيد بن سِنان ، عن أنس بن مالك ، عن

(١١٣) الطرف : النظر .

النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « **تقبَّلوا إليّ بستّ أتقبَّلْ إليكم بالجنة ، قالوا : وما هي يارسول الله ؟ قال : اذا حدّث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف وإذا اؤتُمِنَ فلا يخون ، غُضُّوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكُفوا أيديَكم** » .

والثانى : ترغيبها فى الحلال عوضا ، وإقناعها بالمباح بدلا ، فإن الله ما حرّم شيئا إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه ، لما علمه من نوازع الشهوة ، وتركيب الفطرة ، ليكون ذلك عونا على طاعته ، وحاجزا عن مخالفته .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أمرَ الله تعالى بشيء ، إلا وأعان عليه ، ولا نهى عن شيء إلا وأغنىَ عنه .

والثالث : إشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره ، واتقاؤه فى زواجره ، والزامها ماألزم من طاعته ، وتحذيرها ما حذّر من معصيته ، وإعلامُها أنه لا يخفى عليه ضمير ، ولا يعزُب عنه قِطْمير ،[114] وأنه يجازى المحسن ويكافىء المسيء ، وبذلك نزلت كتبه ، وبَلَّغت رسله .

روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن : ﴿ **واتَّقُوا يوماً تُرْجعون فيه إلى الله ، ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسَبَت وهم لا يظلمون**[115] ﴾ . وآخر ما نزل من التوراة : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » وآخر ما نزل من الإنجيل : « شرُّ الناس من لايبالى أن يراه الناس مُسيئا » . وآخر ما نزل من الزَّبور : « من يزرع خيرا يحصد زرعه غِبطة » فإن أشعرها ما وصفت ، انقادت إلى الكف ، وأذعنت بالاتقاء ، فسلم دينه ، وظهرت مُروءته ، فهذا شرط .

وأما كف اللسان عن الأغراض ، فلأن عدمه مَلاذ السفهاء ، وانتقام أهل الغَوغاء وهو مستسهَل الكُلَف . واذا لم يَقْهر نفسه عنه برادع كافّ وزاجر صادّ تلبَّط بمعارّه وتخبَّط بمضارّه . وظن أنه لتجافى الناس عنه حِمىً يتقى ،

(١١٤) القطمير القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها . ولايعزب لايعيب ولايخفى والمقصود أنه يعلم ماخفى وماظهر سبحانه .

(١١٥) البقرة : ٢٨١

ورتبة تُرْتقَى : فهلك وأهلك .. فلذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم « ألا إن دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم حرامٌ عليكم » ، فجمع بين الدم والعِرض لما فيه من إيغار الصدور . وإبداء الشُّرور . وإظهار البَذاء . واكتساب الأعداء ، ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لموموق(116) ، ولا مروءة للحوظ ، ثم هو بها موتور موزور ، ولأجلها مهجور مزجور .

وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شرّ الناس من أكرمه الناس اتقاءَ لسانه » .

وقال بعض الحكماء : إنما هلك الناس بفضول الكلام ، وفضول المال .

وما قَدَح فى الأعراض من الكلام نوعان : أحدهما : ما قدح فى عرض صاحبه ، ولم يتجاوز إلى غيره ، وذلك شيئان : الكذب ، وفحش القول والثانى : ما تجاوزه إلى غيره ، وذلك أربعة أشياء : الغِيبة ، والنّميمة والسِّعاية ، والسَّبّ ، بقذف أو شتم ، وربما كان السبُّ أنكاها للقلوب وأبلغها أثرا فى النفوس ، ولذلك زجر الله عنه بالحدّ تغليظا ، وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا ، وقد يكون ذلك لأحد شيئين : إما انتقام يصدر عن سفه ، أو بَذاءٍ يحدث عن لؤم . وقد رَوَى أبو سَلمة عن أبى هريرة ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن غِرٌ كريم ، والفاجر خِبٌّ لئيم(117) . وقال ابن المقفَّع : الاستطالة لسان الجهالة ، وكف النفس عن هذه الحال بما يصدُّها من الزواجر أسلم ، وهو بذى المروءة أجمل ، فهذا شرط .

أما العفة عن المآثم فنوعان :

أحدهما : الكف عن المجاهرة بالظلم ، والثانى : زجر النفس عن الإسرار بخيانة .

فأما المجاهرة بالظلم فعُتُوّ مهلك ، وطُغيان مُتْلِف ، وهو يئول إن استمرّ إلى فتنة أو جَلاء ، فأما الفتنة فى الأغلب فتُحيط بصاحبها ، وتنعكس على البادىء

(116) الموموق : المحبوب .

(117) الغِرّ : الشاب الذى لاخبرة له . والمقصود : طيبة قلبه . والخب : المخادع .

بها ، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروع ، كما قال الله تعالى : ﴿ **ولا يَحيق المكرُ السيىء إلا بأهله** ﴾[118] . وَرُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الفتنة نائمة ، فمن أيقظها صار طعاما لها » .

وقال جعفر بن محمد : الفتنة حَصاد للظالمين » . وقال بعض الحكماء : صاحب الفتنة أقرب شىء أجَلا ، وأسوأ شىء عَمَلا .

وقال بعض الشعراء :

وكــنتَ كَعنْــز قامَتْ لَحَتْفهـــا إلى مدية تحتَ الثّرى تستثيرُها[119]

وأما الجَلاء : فقد يكون من قوة الظالم ، وتطاول مدته ، فيصير ظلمه مع المُكنَة جَلاء وفناء ، كالنار إذا وقعت فى يابس الشجر ، فلا تبقى معَها مع تمكنها شيئا ، حتى إذا أُفْنَتْ ما وجدت ، اضمحلتْ وخمدتْ ، فكذا حال الظالم ، مُهلِك ثم هالك ، والباعث على ذلك شيئان : الجراءة والقَسوة ، ولذلك قال النبىّ عليه الصلاة والسلام : « اطلُبوا الفضل والمعروف عند الرُّحماء من أمتى ، تعيشوا فى أكنافهم » والصادُّ عن ذلك : أن يَرَى آثار الله تعالى فى الظالمين ، فإن له فيهم عِبَرا ، ويتصوّر عواقب ظلمهم ، فإن فيها مُزْدَجرا . وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصبح ولم يَنْوِ ظُلْم أحد ، غَفَرَ الله له ما اجترم » . وَرَوَى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عليّ ، اتق دعوة المظلوم ، فإنه إنما يسأل الله حقه ، وإن الله لا يمنع ذا حقّ حقّه » . وقيل فى منثور الحِكَم : ويلٌ للظالم من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء : من جار حُكمه ، أهلكه ظلمُه . وقال بعض الشعراء :

ومـــا مِنْ يَدٍ إلا يدُ الله فوقَهـــا ولا ظالم إلَّا سَيُبْلَـــى بظالـــمِ

---

(١١٨) فاطر : ٤٣ .

(١١٩) وفى المثل «سعت إلى حتفها بظلفها» .

وأما الإسرار بالخيانة فضَعَة ، لأنه يبذل الخيانة مَهَين ، ولقلة الثقة به مستكين . وقيل فى منثور الحكم : من يَخُنْ يَهُنْ . وقال خالد الرَّبَعِىّ : قرأت فى بعض الكتب السالفة : أنّ مماً تُعجَّل عقوبته ولا تؤخر ، الأمانة تُخان ، والإحسان يُكفَر ، والرحم تُقطَع ، والبغىُ على الناس ؛ ولو لم يكن من ذم الخيانة إلا مايجده الخائن فى نفسه من المذلة ، لكفاه زاجرا ، ولو تصوَّر عُقْبَى أمانته ، وجَدْوَى ثقته ، لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه ، وأقوى شفعاء تقدّمه ، مع مايجدُه فى نفسه من العزّ ، ويقابَل عليه من الإعظام . وقد رُوِى عن النبى ﷺ أنه قال : **«أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك . ولا تَخُنْ من خانك»** وَرَوَى سعيد بن جُبَيْر قال : لما نزلت هذه الآية : **﴿ومِنْ أهل الكتاب مَنْ إن تأمنْه بقنطار يؤدِّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادُمْتَ عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأمِّيين سَبيل(١٢٠)﴾** يعنون أن أموال العرب حلال لهم ، لأنهم من غير أهل الكتاب . قال رسول الله ﷺ : **«كذب أعداء الله ! مامِن شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ ، إلّا الأمانة ، فإنها مُؤَداة إلى البَرّ والفاجر» . ولا يجعل مايتظاهر به من الأمانة زُورا ، ولا مايُبديه من العِفة غُرورا ، فينهتك الزور ، وينكشف الغُرور فيكون مع هَتْكه للتدليس أقبح ولمعرَّة الرياء أفضح . وقد رُوِى عن النبى لله أنه قال : «لا تزالُ أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مَغْرَما» وقال بعض الحكماء من التمس أربعا بأربع التمس مالا يكون: مَن التمس الجزاء بالرياء ، التمس مالا يكون ؛ ومن التمس مودة الناس بالغلظة ، التمس مالا يكون ؛ ومن التمس وفاء الإخوان بغير وفاء ، التمس مالا يكون ؛ ومن التمس العلم براحة الجسد ، التمس مالا يكون .**

والداعى إلى الخيانة شيئان : المهانة ، وقلة الأمانة ، فإذا حسمهما عن نفسه بما وصَفْت ، ظهرت مروءته . فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة .

---

(١٢٠) آل عمران : ٧٥ .

النزاهة

وأما النزاهة فنوعان : أحدهما : النزاهة عن المطامع الدنية . والثانى : النزاهة عن مواقف الرِّيبة . فأما المطامع الدنية ، فلان الطمع ذل ، والدناءة لؤم ، وهما أدفع شيء للمروءة وقد كان النبى ﷺ يقول فى دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من طمَع يَهدى إلى طَبَع .

وقال بعض الشعراء :

لا تخضَعَنَّ لمخلوق على طَمعٍ فإن ذلك نقصٌ منك فى الدِّينِ
واستَرْزِق الله مما فى خزائنِه فإنما هو بين الكاف والنونِ

والباعث على ذلك شيئان : الشَّرَه ، وقلة الأنفة ، فلا يقنع بما أوتِى وإن كان كثيرا ، لأجل شرَهه ، ولا يستنكِف مما مُنِع وإن كان حقيرا ، لقلة أنفته . وهذه حال من لا يرضى لنفسه قَدرا ، ويرى المالَ أعظم خَطَرا ، فيرى بذلَ أهون الأمرين لأجلهما مَغْنما ، وليس لمن كان المال عنده أجلّ ، ونفسه عليه أقل إصغاء لتأنيب ، ولا قبول لتأديب . ورُوِى أنّ رجلا قال يارسول الله أوصنى . قال : **«عليك باليأس مما فى أيدى الناس ، وإياك والطمَع ، فإنه فقر حاضر . وإذا صلَّيت صلاة فصلِّ صلاة مُوَدِّع ، وإياك وما يُعتذر منه»** .

وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مُناهُ وهمَّهُ سَبَتْهُ المنى واستعبدتهُ المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان : اليأس ، والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : **«إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوعى : أنّ نفسًا لن تموتَ حتَّى تستوْفى رِزْقَها ؛ فاتقوا الله وأجْمِلُوا فى الطَّلَب ، ولايحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصى الله تعالى ، فإن الله عز وجل لايُدرَك ماعنده إلّا بطاعته»** . فهذا شرط .

وأما مواقف الريبة فهى التردُّد بين منزلتى حَمْد ، والوقوف بين حالتى سلامة وسقم ، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين ، ويناله ذلة المُرِيبين ، وكفى بصاحبها موقفا ، إن صح افتضح ، وإن لم يصحَّ امتُهِنَ . وقد قال النبىّ ﷺ : **«دع مايَرِيبك إلى مالا يَرِيبك» . وسُئل محمد بن علىّ عن المروءة ؟ فقال : ألّا تعمل فى السرِّ عملا تستحى منه فى العلانية . وقال حسان بن أبى سِنان : ماوجدت شيئا هو اهون من الورع . قيل له : وكيف ؟ قال : إذا ارْتبْتُ بشىء تركته .**

والداعى إلى هذه الحال شيئان : الاسترسال ، وحسن الظن . والمانع منهما شيئان : الحياء والحذر . وربما انتفت الريبة بحسن الثقة ، وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حُكِى عن عيسى بن مريم عليه السلام : أنه رآه بعض الحَواريّين ، وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور ، فقال : يارُوحَ الله ماتصنع هنا ؟ فقال الطبيب إنما يداوِى المرضَى . ولكن لاينبغى أن يجعل ذلك طريقا إلى الاسترسال ، وليكن الحذر عليه أغلب ، وإلى الخوف من تصديق التهم أقرب ، فما كل رِيبة ينفيها حسن الثقة . هذا رسول الله ﷺ ، وهو أبعد خلق الله من الرِّيَب ، وأصونُهم من التُّهم ، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها ، وكان معتكفا ، فمرَّ به رجلان من الأنصار ؛ فلما رأياه أسرعا ، فقال لهما : **على رسلِكما ، إنها صَفية بنت حُيى . فقالا : سبحان الله ! أوفيك شكٌ يارسول الله ؟ فقال مَهْ : إن الشيطان يجرِى من أحدِكُم مَجْرى لحمه ودمه ، فخشيت أن يَقْذِف فى قلبيكما سُوءًا» فكيف مَنْ تخالجت** فيه الشكوك ، وتقابلت فيه الظنون ؟ فهل يَعرَى فى مواقف الريب من قادح محقق ، ولائم مصدّق . وقد رُوِى عن النبى ﷺ أنه قال : **«إذا لم يَشْق المرء إلّا بما عمِل ، فقد سَعِد»** . وإذا استعمل الحزم ، وغلَّب الحذر ، وترك مواقف الرِّيب ، ومظانّ التهم ، ولم يقف موقف الاعتذار ، ولا عُذْرَ لمختار ، لم يَخْتلج فى نزاهته شكّ ، ولم يقدح فى عرضه إفْك .

وقد قال الشاعر :

أصُونُكَ أن أدُلَّ علــيك ظَنّــا لأنَّ الظــن مفتــاحُ اليَقِيـــنِ

وقال سهل بن هارون : مُؤنة المتوقِّف ، أيسر من تكلُّف المتعسِّف . وقال بعض الحكماء : من حسن ظنه بمن لايخاف الله تعالى فهو مخدوع .

وأنشدنى بعض أهل الأدب ، لأبى بكر الصُّولِى رحمه الله ، قوله :

أحسنتُ ظنـــى بأهـــلِ دهـــرِى   فحسنُ ظَنِّـــى بهم دَهـــانى
لا آمـــنُ النـــاسَ بعـــدَ هذا   ما الخوفُ إلَّا من الأمـــانِ

فهذا شرط استوفينا فيه نَوْعَى النزاهة

الصيانة

وأما الصيانة ، وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان . أحدهما : صيانة النفس بالتماس كفايتها ، وتقديم مادتها ، والثانى : صيانتها عن تحمّل المِنَن ، والاسترسال فى الاستعانة ، فأما التماس الكفاية ، وتقديم المادة ، فلِأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مهتَضَم[١٢١] ، وذليل مستثقَل ، وهو لِما فطر عليه محتاج إلى مايستمدّه ، ليقيم أودَ نفسه ، ويدفع ضرورة وقته ، ولذلك قالت العرب فى أمثالها : كلبٌ جَوَّال خير من أسد رابض ومايستمده نوعان : لازم ونَدْب . فأما اللازم فما قام بالكفاية ، وأفضى إلى سَدّ الخَلة ؛ وعليه فى طلبه ثلاثة شروط :

أحدها : استطابته من الوجوه المباحة ، وتوقى المحظورة ، فإن المواد المحرّمة مستخبثة الأصول ، ممحوقة المحصول ، إن صَرَفها فى بِرّ لم يؤجَر ، وإن صرفها فى مدح لم يشكر ، ثم هو لأوزارها محتقب ، وعليها معاقَب . وقد قال رسول الله ﷺ : «**لا يعجبْك رجل كسب مالا من غير حِلّه ، فإن أنفقه لم يُقبل منه ، وإن أمسكه فهو زاده إلى النار**» . شر المال مالزمك إثم مَكْسَبه ، وحُرِمْتَ أجْرَ إنفاقه .

---

(١٢١) كَلٌّ : ضعيف . لايقام له وزن ولايعمل له حساب .

ونظر بعض الخوارج إلى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مِسكين ، فقال : انظر إليهم حسناتهم من سيئاتهم . وقال علّى بن الجَهْم :

سَرَّ مَنْ عاش مالُــــــه فإذا حا   سَبَــــــه الله سَرَّه الإعـــــدامُ

والثانى : طلبه من أحسن جهاته ، التى لايلحقه فيها غَضّ ، ولا يتدنّس له بها عِرْض ؛ فإن المال يراد لصيانة الأعراض ، لا لا بتذالها ، ولعز النفوس ، لا لإذلالها وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ياحبذا المالُ أصونُ به عرضى ، وأرضِى به ربى .

وقال أبو بشر الضرير :

كفَى حزنا أنّـــى أروحُ وأغتـــدى   ومالِـــى من مالٍ أصُون به عِرضى
وأكثر ماألقَـــى الصديـــق بمرحَبـــاً   وذلك لايكفى الصديـق ولا يُرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبىّ ﷺ : «اطلبوا الحوائج من حِسان الوجوه» ، فقال : معناه مِنْ أحسن الوجوه التى تحلّ .

والثالث : أن يتأنّى فى تقدير مادته ، وتدبير كفايته ، بما لايلحقه خَلَل ، ولا يناله زلَل ، فإنَّ يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعا ، وأحسنُ موقعا ، من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير ، كالبذر فى الأرض ، إذا رُوعى يسيره زكا ، وإن أُعمل كثيره اضمحَلّ وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة : العفة فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل لبعض الحكماء : فلان غنىّ ، فقال : لا أعرف ذلك ، مالم أعرفْ تدبيره فى ماله .

فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية ، فقد أدّى حق المروءة فى نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : العفّة والحِرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنىّ ، لاتكن على أحد كَلّا ، فإنك تزداد ذُلّا ، واضرب فى الأرض عَوْدا وبَدْءا ، ولا تأسف لمال كان فذهب ، ولاتعجِز عن الطلب لوصَب ولانصَب ،[١٢٢] ، فهذا حال اللازم . وقد كان ذوو الهمم

(١٢٢) الوصب : الوجع والمرض . والنصب التعب .

العَلية ، والنفوس الأبية ، يرون ماوصل إلى الإنسان كسبا ، أفضل مما وصل إليه إرثا ، لأنه فى الإرث فى جَدْوى غيره ، وبالكسب مُجْدٍ إلى غيره ، وفرق مابينهما فى الفضل ظاهر . وقال كشاجم :

لا أستلذُّ العيشَ لم أدأب له طَلَبا وسَعْيا فى الهواجر والغلس*(١٢٣)
وأرى حَرَاما أن يُوَاتينى الغنى حتى يحاول بالعَناء ويُلْتَمَسْ
فاصرفْ نوالَك عن أخيك مُوَفَّــرا فالليث ليس يُسيِــغُ إلّا ماافتــرسْ

وأما الندب فهو : مافضل عن الكفاية ، وزاد على قدر الحاجة ، فإن الأمر فيه معتبر بحال طالبه ، فإن كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء ، وتقاصر عن مطاولة النظراء ، وانقبض عن منافسة الأكفاء ، فحسبُه ما كفاه ، فليس فى الزيادة إلا شَرَه ، ولا فى الفُضُول إلّا نَهَم ، وكلاهما مذموم . وقد قال النبى ﷺ : «خير الرزق مايكفى ، وخيرُ الذكر الخفىّ» .

وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : الدنيا كَلٌّ على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود : المستغنى عن الدنيا بالدنيا ، كمطفىء النار بالتِّبْن . وقال بعض الحكماء : اشتر ماء وجهك بالقناعة ، وتسلَّ عن الدنيا بتجافيها عن الكرام . فإن كان ممن مُنِى بعلو الهمم ، وتحركت فيه أريحية الكرم ، وآثر أن يكون رأسا مقدما ، وأن يُرى فى النفوس مُعَظَّما ومفخَّما ، فالكفاية لا تُقِلّه حتى يكون ماله فاضلا ، ونائله(١٢٤) فائضا ؛ فقد قيل لبعض العرب : ما المروءة فيكم ؟ قال : طَعام مأكول ، ونائل مَبذول ، وبِشر مقبول . وقد قال الأحنف بن قيس :

فلوْ مُدَّ سَرْوِى بمال كثيرٍ لَجُدْتُ وكـنتُ له باذلَا(١٢٥)
فإن المروءة لا تستطـــاعُ إذا لم يكن مالهُـا فاضلا

---

(١٢٣) الهواجِر : جمع هاجرة شدة الحرحين يهجر الناس الشوارع ويستكنون فى البيوت والغلس : ظلمة آخر الليل .

(١٢٤) نائله : عطاؤه وكرمه وبذله .

(١٢٥) السَّرْو : الفضل والسخاء فى المروءة .

وأما صيانتها عن تحمل المِنَن ، والاسترسالِ فى الاستعانة ، فلأن المِنة استرقاق الأحرار ، تُحدْث ذلة فى الممنون عليه ، وسَطوة فى المانّ ، والاسترسال فى الاستعانة تثقيل، ومن ثقّل على الناس هان ، ولا قدر عندهم لمهان .

وقال رجل لعمر رضى الله عنه : خدَمَك بنُوك ، فقال : أغنانى الله عنهم .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن ، فى وصيته : يابنىّ إن استطعت ألّا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، ولاتكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حُرًّا ، فإن اليسير من الله تعالى أكرمُ وأعظم من الكثير من غيره ، وإن كان كلّ منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدَّهاقين(١٢٦) : ما المروءة فيكم ؟ قال : اجتناب الرِّيَب ، فإنه لا ينْبُل مُريب ، وإصلاح الرجل مالَه ، فإنه من مُروءته ، وقيامه بحوائجه وحوائج أهله ، فإنه لا ينُبل مَن احتاج إلى أهله ، ولا من احتاج أهله إلى غيره . وأنشد ثعلب :

مَنْ عَفَّ خفَّ على الصديق لقـاؤه   وأخـو الحوائـج وجهُـه مملـولُ
وأخـوك مَن وَفَّـرت مافى كيسه   فإذا عَبِـثْتَ به فأنت ثقيـلُ

وإن كان الناس لُحْمَة لايستغنون عن التعاون ، ولايستقلون عن المساعد والمُظافر ، فإنما ذلك تعاون ائتلاف ، يتكافئون فيه ولا يتفاضلون ، وربما كان المستعين فيه مفضّلا ، والمعين مستفضَلا ، كاستعانة السلطان بجنده ، والمزارع بأكَرَته ، فليس من هذا بدّ ، ولا لأحد عنه غِنى ؛ وإنما الذى يتصوَّنُ عنه الكرام ، تعاوُن التفضيل ، فينقبضون عن أن يستعينوا ، لئلا يكون عليهم يد ، ويُسارعون أن يعُينوا ، لأن يكون لهم يد ؛ ومَن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال ، فقد أوْهَى مروءته ، واستبذل صيانته ، ومن دعاه الاضطرار لنائب ألَم ، أو حادث هَجَم إلا الاستعانة بمن يتنفس به من خِناق كَربه ، ويتخلّص به من وَثاق نوائبه ، فلا لوم على مضطرّ ، فإن أغْنته الاستعانة بالجاه ، عن الاستعانة بالمال ، فلا عُذر له فى التعرّض للمال ، ويعدِل إلى وُلاة الأمور ، فإن الحوائج عندهم أنجح ، وهى عليهم أسهل ، وهم لذلك

(١٢٦) الدهاقين جمع دهقان وهو رئيس الإقليم بضم الدال وكسرها .

مندوبون ، فهم لايجدون لهم مساويا ، ولْيصبِرَنّ على إبطائهم ، فإن تراكم الأمور عليهم يشغَلُهم ، إلا عن الملحِّ الصَّبور ، ولذلك قيل : قدّم لحاجتك بعض لجاجتك . وقال أبو سَارة سُحَيم بن الأعرف :

تَعُـدُّ قرابــةً وتَعُـــدُّ صِهْــــراً   ويُسْعَــدُ بالقرابــةِ مَن رَعاهــــا
ومــا زُرنــاكَ من عَدَمٍ ولكـــن   يَهَشُّ إلى الإمــارةِ مَن رَجاهـــا
وأيّـــا مَا فَعـــلْتَ فإن نفسى   تَعُـــدُّ صَلاحَ نفسِكَ مِنْ غِناهـــا

فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه ، كان له مع الضرورة فُسْحة ، لكن إن وجده قَرْضا مردودا ، لم يأخذه صِلة وجودا ، فإن القرض مستسمَح به فى المروءات . هذا رسول الله ﷺ ، مع ماأعلى الله من قدره وفضله على خلقه ، قد اقترض ، ثم قضى فأحسن . وقال ﷺ : **«من أعياه رزق الله تعالى حَلالا ، فلْيَستدِن على الله وعلى رسوله»** . وقال ﷺ : **«المستدين تاجرُ الله فى أرضه»** .

وقال البحترىّ :
إن لم يكــن كُثْــر فكُــلُّ عَطيــةٍ   يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أو لم يكــن هبــة فقــرض يُسِّرَتْ   أسبابُــه ، وكــواهبٍ مَن أقْــرضَا

ولئن كان الدَّين رِقًّا ، فهو أسهل من رِق الإفضال . وقد رُوِى عن علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : من أراد البقاء ولا بقاء ، فليباكر الغَدَاء ، وليخفِّف الرداء . قيل : وما خفة الرداء من البقاء ؟ قال : قِلة الدَّيْنِ ، فإن أعوزه ذلك إلا استمناحا ، فهو الرِّق المذلّ ، ولذلك قيل : لامُروءة لُمقِلّ . وقال بعض الحكماء : مَن قَبل صلتك فقد باعك مُروءته ، وأذل لقدرك عِزّه وجلالته .

والذى يَتماسك به الباقى من مُروءة الراغبين ، واليسير التافه من صيانة السائلين ، وإن لم يبق لذى رغبة مروءة ، ولا لسائل تصوّن : أربعة أمور ، هى جهْد المُضطَر :

أحدُها : أن يتجافى ضَرَع السائلين ، وأبَّهة المستقلين ، فيذلّ بالضَّرَع ، ويُحْرَم بالأبهة ، وليكن من التجمُّل على مايقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء : متى يَفْحُش زوال النعم ؟ قال : إذا زال معها التجمُّل .

وأنشد بعض أهل الأدب لعلىّ بن الجَهْم :

هىَ النفسُ ماحَمَّلْتَها تتحَمَّلُ ... وللدّهرِ أيامٌ تجورُ وَتعدِلُ
وعاقبةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ ... وأحسنُ أخلاقِ الرجالِ التفضُّلُ
ولا عارَ إن زالت عن الحرّ نعْمةٌ ... ولكنّ عاراً أن يزول التجمُّلُ

والثانى : أن يقتصر فى السؤال على مادعته إليه الضرورة ، وقادته إليه الحاجة ، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام ، فيحرَمَ باغتنامه ، ولايعذرَ فى ضرورته . وقد قال بعض الحكماء : من أَلِف المسألة أَلِفه المنع .

والثالث : أن يَعْذِر فى المنع ، ويشكر على الإجابة ، فإنه إن مُنِع فعمّا لا يملك ، وإن أجيب فإلى مالا يستحقّ . فقد قال النمرِ بن تَولَب :

لا تَغضَبَنَّ عَلَى امرىءٍ فى مالِه ... وَعَلَى كرائمِ صُلْبِ مالكَ فاغضَبِ

والرابع : أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا ، وكان النجح عنده مأمولا ، فإن ذوى المُكنة كثير ، والمعين منهم قليل . وَلذلك قال النبى ﷺ : **«الخير كثير ، وقليل فاعله»** .

والمرجوّ للإجابة من تكاملت فيه خصالها ، وهى ثلاث :

إحداهن : كرم الطبع ، فإن الكريم مساعد ، واللئيم معاند . وقد قيل : المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة . والثانية : سلامة الصدر ، فإن العدوّ ألْبٌ على نكبتك ، وحرب فى نائبتك . وقد قيل : من أَوْغَرْتَ صدره ، استدعيت شَرَّه ؛ فإن رقّ لك بكرم طبعه ، ورحمك بحسن ظَفَره ، فأعظِم بها مِحنة : أن يصير عدوّك لك راحما .

وقد قال الشاعر :

وحَسْبك من حادث بامـــــرىءٍ تُرَى حاسدِيــــه لَهُ راحمينـــا !

والثالث : ظهور المُكْنَة ؛ فإن من سأل مالا يمكن فقد أحال ، وكان كمستنهض المسجون ، ومستسِعف المديون ، وكان بالردّ خليقا ، وبالحرمان حقيقا . وقد قال علىّ كرم الله وجهه : (مَنْ لا يعرفْ «لا» حتى يقال له «لا» ، فهو أحمق) ووصَّى عبد الله بن الأهتم ابنه فقال : يابنىّ لاتطلب الحوائج من غير أهلها ، ولا تطلبْها فى غير حينها ، ولا تطلب مالست له مستحقًا فإنك إن فعلتَ ذلك كنتَ حقيقا بالحِرْمان .

وقال الشاعر :

ولا تسألـــنَّ امـــرَأ حاجـــةً يحاولُ من ربِّهـــا مثلَهـــا

فيتـــرُكَ ما كنتَ حَمَّلْتَـــه ويَبْـــدَا بحاجتــــه قبلهـــا

فهذا مايختص بشروط المروءة فى نفسه .

شروط المروءة فى غيره

وأما شروط المروءة فى غيره فثلاثة : المؤازرة ، والمياسرة ، والإفضال : أما المؤازرة فنوعان : أحدهما : الإسعاف بالجاه . والثانى : الإسعاف فى النوائب .

فأما الإسعاف بالجاه ، فقد يكون من الأعلى قدرا ، والأنفذ أمْرا ، وهو أرخص المكارم ثمنا ، وألطف الصنائع مَوْقعا ، وربما كان أعظم من المال نفعا ، وهو الظلّ الذى يلجأ إليه المضطرّون والحِمى الذى يأْوِى إليه الخائفون ، فإن أوطأه(١٢٧) اتسع بكثرة الأنصار والشيع ، وإن قبضه(١٢٨) انقطع بنفور الغاشية والتَّبع ، فهو بالبذل يَنْمِى ويزيد ، وبالكفّ ينقص ويَبيد ، فلا عذر لمن مُنِح جاها أن يبخل به ، فيكونَ أسوأ حالا من البخيل بماله ، الذى قد يُعِدُّه لنوائبه ، ويستبقه للذته ، ويكنِزُه لذرِّيته . وبضدّ ذلك من بخل بجاهه ، لأنه قد

(١٢٧) أوطأه : مهده وسهله .

(١٢٨) قبضه : ضيقه وأمسكه .

أضاعه بالشحّ ، وبدّده بالبخل ، وحَرَم نفسه غنيمةَ مُكنَتِه ، وفُرْصةَ قدرته ، فلم يُعقبه إلا ندما على فائت ، وأسفا على ضائع ، ومقتا يَستحكم فى النفوس ، وذما قد ينتشر فى الناس وقد رُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال : «الخلْق كلهم عِيال الله ، وأحب خلق الله تعالى إليه ، أحسنهم صنيعا إلى عِياله» . وقال بعض الحكماء : اصنَع الخير عند إمكانه يبق لكَ حمدُه عند زواله ، وأحسِن والدَّولة لك ، يُحْسَن لك والدَّولة عليك ؛ واجعل زمان رخائك ، عُدّة لزمان بلائك .

وقال بعض البلغاء : من علامة الإقبال ، اصطناع الرجال . وقال بعض الأدباء : بذل الجاه أحد الحِباءين .

وقال ابن الأعرابيّ : العرب تقول : مَن أمَّلَ شيئا هابه ، ومن جهل شيئا عابَه . وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس ، وشكر النعمة ، وضدّه من ضدّه ، وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا ، وإنما هو بائع جاهه ، ومعاوِضٌ على نِعم الله تعالى وآلائه ، فكان بالذمّ أحقّ .

وأنشد بعض الأدباء لعلّى بن عباس الروميّ ، رحمه الله :

لا تبــذلِ العُــرْفَ حيــنَ تبذلُـــهُ كمشتــرِى الحمــد أو كمعتــاضِه
بل تفعـــلُ العُــرفَ حين تفعلُــــه لجوهرِ العُـرف لا لأعــرَاضِهْ(١٢٩)

وعلى من أسْعد بجاهه ثلاثة حقوق ، يستكثر بها الشكر ، ويستمدّ بها المزيد من الأجر :

أحدُها : أن يستسهل المعونة مسرورا ، ولا يستثقلها كارها ، فيكون بنعم الله تعالى متبرِّما ، ولإحسانه متسخِّطا ؛ فقد رُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال : **«مَنْ عَظمت نعمة الله تعالى عليه ، عَظُمت مُؤنة الناس عليه»** . فمن لم يحتمل تلك المؤنة ، عرَّض تلك النعمة للزوال .

---

(١٢٩) الجوهر : ماقام بنفسه ، والعرض : ماقام بغيره ، وجوهر الشيء ذاته وحقيقته والعرض صفته المتغيره .

والثانى : مجانبة الاستطالة ، وترك الامتنان ، فإنهما من لؤم الطبع ، وضيق الصدر ، وفيها هدم الصنيع وإحباط الشكر. وقد قيل للحكيم اليونانيّ : من أضيقُ الناس طريقا ، وأقلهم صديقا ؟ قال : من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

والثالث : ألّا يقرُن بمشكور سعيه تقريعاً بذنب ، ولا توبيخا على هَفْوة ، فلا يفى مَضَض التوبيخ ، بإدراك النُّجْح ، ويصير الشكر وَجْدا[١٣٠] ، والحمد عيبا ؛ ولذلك قال النبيّ ﷺ : **«أقيلوا ذوى الهيئات[١٣١] عَثَراتِهم»** .

وقال النابغة الجَعْدىّ :

ألَم تعلَما أن الملامةَ نفُعها قليلٌ إذا ما الشيء ولّى فأدبَرا

وأما الإسعاف فى النوائب ، فلأن الأيام غادرة ، والنوازل عائرة[١٣٢] ، والحوادث عارضة ؛ والنوائب راكضة ؛ فلا يَعْذِر فيها إلا عليم ، ولا يستنقذه منها إلا سليم .

وقد قال عدىّ بن حاتم :

كفى زاجراً للمرء أيامُ دَهْرِه تروحُ له بالواعظاتِ وتغتدِى

فإذا وجدَ الكريم مصابا بحوادث دهره ، حثه الكرم ، وشكر النعم ، على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلا إليه ، ووجَدَ قدرة عليه . رُوِى عن النبى ﷺ أنه قال : **«خيرٌ من الخير معطيه ، وشرٌ من الشر فاعله»** . وقيل لبعض الحكماء : هَلْ شىءٌ خيرٌ من الذهب والفضة ؟ قال : مُعطيهما .

والإسعاف فى النوائب نوعان : واجبٌ ، وتبرّع . فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم : الأهل ، والإخوان ، والجيران .

أما الأهل فلمماسة الرحم ، وتعاطف النسب ، وقد قيل : لم يسُد من احتاج أهله إلى غيره .

---

(١٣٠) وجدا : غضبا .

(١٣١) أى أهل المروءات والخصال الحميدة . والذين يلزمون سمتا حسنا .

(١٣٢) عائرة : مهلكة . وفى المخطوطة عاترة ، وفى منهاج اليقين : غائرة . ولعلها تحريف .

وقال حسان بن ثابت :

وإنَّ امـرَأً نالَ المُنَى لم ينَـلْ به   قريبـا ولا ذا حاجـة لزهيـد
وإن امـرأ عادَى الرجالَ على الغنى   ولم يسأل الله الغِنَـى لحسودُ

وأما الإخوان فلمُسْتحكم الوُدّ ، ومتأكِّد العهد .

وسُئِل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : صدق اللسان ، ومواساة الإخوان ، وذكر الله تعالى فى كل مكان . وقال بعض حُكماء الفرس : صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ، ونَفسَه عند النكبة ، ويحفظك عند المغيب . ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لايفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : هما صديقان ، فقال : ما بال أحدهما فقير ، والآخر غنى .

وأما الجار فلدنوّ داره ، واتصال مَزاره ؛ قال على كرم الله وجهه : ليس حسن الجوار كفَّ الأذى ، بل الصبر على الأذى . وقال بعض الحكماء : من أجار جارَه ، أعانه الله وأجاره وقال بعض البلغاء : مَن أحسن إلى جاره ، فقد دَلَّ على حسن نِجَاره .

وقال بعض الشعراء :

وللجـار حقٌّ فاحتـرز من أذاتـه   وما خيـرُ جارٍ لم يزل لك مُؤذيـا

فيجب فى حقوق المروءة ، وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة ، تحمل أثقالهم ، وإسعافهم فى نوائبهم ، ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المُكْنة ، أن يكلَهم إلى غيره ، أو يلجئهم إلى سُؤاله ، وليكن السائل عنهم كرمُ نفسه ، فإنهم عِيال كرمه ، وأضياف مُروءته ، فكما أنه لايحسن أن يُلْجِىء عياله وأضيافه إلى الطَلب والرغبة ، فهكذا من عاله كرمه ، وأضافته مروءته .

وقال بعض الشعراء :

حقٌّ على السيـد المرجـوّ نائلُـهُ   والمستجارُ به فى العُربِ والعَجَـمِ
ألّا يُنيـل الأقـاصى صَوْبَ راحتـه   حتى يَخُصَّ به الأدنى من الخَـدَمِ
إن الفـراتَ إذا جاشت غواربُـه   رَوَّى السواحلَ ثم امتدّ فى الأمـمِ

وأما التبرع ففيمن عدا هؤلاء الثلاثة ، من البُعَداء الذين لا يُدْلُون بنسب ، ولا يتعلّقون بسبب ، فإن تبرع بفضل الكرم ، وفائض المروءة ، فنهض فى حوادثهم ، وتكفل بنوائبهم ، فقد زاد على شروط المروءة ، وتجاوزها إلى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء : أى شىء من أفعال الناس يشبه أفعال الإله ؟ قال : الإحسان إلى الناس .

وإن كفَّ تشاغلا بما لزِم فلا لوم ، مالم يلجأ إليه مضطر ، لأن القيام بالكل مُعْوز ، والتكفُّل بالجميع متعذّر ، فهذا حكم المُؤَازرة .

المياسرة نوعان

أحدهما : العفو عن الهفوات .

الثانى : المسامحة فى الحقوق .

فأما العفو عن الهفوات ، فلأنه لا مبرأ من سَهو وزَلل ، ولا سليم من نقص أو خَلَل ، ومن رام سليما من هفوة ، والتمس بريئا من نبوة ، فقد تعدّى على الدهر بشَطَطه ، وخادع نفسه بغلطه ، وكان من وجود بغيته بعيدا ، وصار باقتراحه فَرْدا وحيدا . وقد قالت الحكماء : لاصديق لمن أراد صديقا لاعيب فيه وقيل لأنوشِرْوان : هل من أحد لاعيب فيه ؟ قال : من لاموت لَه . وإذا كان الدهر لايوجده ماطلب ، ولاينيله ماأحب ، وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيّا والمنقطع عنهم وحشيا ، لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ، ومياسرة إخوانه فى الصفح والإغضاء . روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : **«إنّ الله تعالى أمرنى بمداراة الناس ، كما أمرنى بأداء الفرائض»** . وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لاتجتمع إلا فى كريم حسن المحضر ، واحتمال الزَّلة ، وقلة الملال .

وقال ابن الرومىّ :

فعُـــذرك مبسوط لذنبٍ مقـــدَّمٍ ووُدُّك مقبـــولٌ بأهـــل ومَـــرْحَبِ
ولـو بَلغتنـــى عنك أذْنِـــى أقمتُهـــا لدىّ مُقـامَ الكـاشح المتكـــذب[١٣٣]
فلستُ بتقليـب الــلسان مُصارِمـــاً خليلاً إذا ماالقلبُ لم يتقلب[١٣٤]

وإذا كان الإغضاء حتما ، والصفح كرما ، تَرَتَّب بحَسب الهفوة ، وتنَزَّل بقدر الذنب والهفوات نوعان : صغائر وكبائر . فالصغائر مغفورة ، والنفوس بها معذورة ، لأن الناس مع أطوارهم المختلفة ، وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها ، فكان الوجد فيها مُطَّرَحا ، والعتب مستقبَحا . وقد قال بعض العلماء : من هجر أخاه من غير ذنب ، كان كمن زرع زرعا ، ثم حصده فى غير أوانه .

وقال أبو العتاهية :

وشر الأخـــــــــلاءِ مَنْ لم يزلْ يعـــــاتِبُ طَوْراً وطـــــــورا يَذُمّ
يريك النصيحـــةَ عنـــد اللقـــاءِ ويَبْـــريك فى السرِّ برىَ القَلَـــمْ

وأما الكبائر فنوعان : أن يهفوَ بها خاطيا ، ويَزِلَّ بها ساهيا ، فالحَرج فيها مرفوع ، والعتب عليها موضوع ؛ لأن هفوة الخاطىء هَدَر ، ولومه هَذَر . وقال بعض الحكماء : لاتقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الأحنف بن قيس : حقُّ الصديق أن تحمل له ثلاثاً : ظلم الغَضَب ، وظُلمَ الدَّالَّة ، وظلمَ الهفوة : وحَكَى ابن عَوْن أن غلاماً هاشمياً عَرْبدَ على قوم ، فأراد عمه أن يسىء به ، فقال : ياعم ، إنى قد أسأت وليس معى عقلى ، فلا تُسيىء بى ومعك عقلك .

وقال أبو نُواس :

لَمْ أؤاخِـــذْك إذ جنـــيتَ لأنّـــى واثـــق منك بالإخـــاء الصحيـــح
فجميـــلُ العـــدوّ غيـــرُ جميـــل وقبيـــح الصديـــق غيـــرُ قبيـــح

---

(١٣٣) الكاشح : العدو الباطن العداوة ، والمتكذب : الذى لا يصدق والمراد أنه لايصدق أذنه ثقة به .
(١٣٤) مصارما : مقاطعا .

فإن تشبَّه خطؤه بالعمد ، وسهوه بالقصد ، تَثَبَّتَ، ولم يَلُمْ بالتوهُّم فيكونَ ملوما ، ولا يلوم ب ن فيصير مذموما ؛ ولذلك قيل : التثبت نصف العفو . وقال بعض الحكماء : لايفسدْك الظن على صديق أصلحك اليقين له .

وقال بعض شعراء هُذَيل :

فبعضُ الأمر تصلحُه ببعضٍ ... فإنَّ الغثَّ يحمله السمينُ
ولا تعْجَلْ بظنك قبل خُبْرٍ ... فعند الخُبر تنقطعُ الظنون
ترى بين الرجال العينُ فضْلاً ... وفيما أضمروا الفضلُ المبين
كلون الماء مشتبهاً وليست ... تُخبِّرُ عن مَذاقته العُيونُ

والثانى : أن يعتمد مااجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال :

فالحال الأولى : أن يكون موتورا ، قد قابل على وَتِرَةٍ ، وكافأ على مساءة ، فاللائمة على من وَتَرَه عائده ، وإلى البادىء بها راجعة ؛ لأن المكافىء أعذر ، وإن كان الصفح أجمل؛ ولذلك قال النبىّ ﷺ : «إياكم والمشارّة ، **فإنها تميت الغُرّة ، وتحيى الغِرّة[١٣٥]** **وقال بعض الحكماء : مَنْ فعل ماشاء ، لقى مالم يشأ . وقال بعض الأدباء** : من نالته إساءتُك ، **همته مساءتُك . وقال بعض البلغاء** : **من أولِع بقبيح المعاملة ، أوجِع بقبح المقابلة .**

وقال صالح بن عبد القُدوس :

إذا وَتَرتَ امرأً فاحذَرْ عداوتَه ... مَنْ يزرع الشوك لايحصُدْ به عِنَبا
إن العدوَّ وإن أبدَى مسالمةً ... إذا رأى منك يوما فُرْصَةً وَثَبا

والإغضاء عن هذا أوجب ، وإن لم تكن المكافاة ذنبا ؛ لأنه قد رأى عُقْبَى إساءته ، فإن واصل الشرّ واصلته المكافأة وقد قيل : باعتزالك الشرّ يَعتزلْك ، وبحسن النصَفة يكثُر الواصلون . وقال بعض الحكماء : من كنت السبب لبلائه ، وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه .

---

(١٣٥) الغُرّة : بياض فى جبهة الفرس والمراد أنها تقتل فى الإنسان سماحة الوجه وحسن اللقاء : أما الغِرّة بالكسر فهى الخديعة . أما المشارة فهى المخاصمة والمجادلة .

وقد قال أوس بن حَجَر :

إذا كنت لم تُعرِض عن الجهل والخَنا   أصبتَ حليمـاً أو أصابكَ جاهـلُ

والحال الثانية : أن يكون عدوّا قد استحكمت شَحْناؤه ، واستوعَرت سَرّاؤه ، واستخْشَنت ضَرّاؤه ، فهو يتربَّص بدوائر السّوء انتهازَ فُرَصِهِ ، ويتجرع لِمهانة العَجز مَرارة غُصَصِهِ ، فإذا ظفِر بنائبة ساعدها ، وإذا شاهد نعمة عاندها ، فالبعد منه حَذَراً أسلم ، والكف عنه مُتاركة أغنم ، فإنه لا يُسلَم من عواقب شرّه ، ولا يُفلَت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء : لا تَعَرَّضَنَّ لعدوّك فى دَولته ، فإذا زالت كُفيت شرّه . وقال لقمان لابنه : يابنىّ كَذب من قال : إن الشرَّ بالشرّ يطفأ . فإن كان صادقا فليوقد نارين ولينظرْ : هل تُطفئُ إحداهما الأخرى ؟ وإنما يُطفئُ الخيرُ الشرَّ ، كما يطفى الماء النار . وقال جعفر بن محمد : كفاك من الله نصرا أن ترَى عدوّك يعصِى الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يُقْهَر المعادِى .

وقال البحترىّ :

وَأقْسِمِ لا أجـزِيك بالشرِّ مثلَـهُ   كَفَى بالذى جازيتَنى لكَ جازِيـا

الحال الثالثة : أن يكون لئيم الطبع ، خبيث الأصل ، قد أغراه لؤم الطبع ، على سوء الاعتقاد ، وبعثه خبث الأصل على إيثار الفساد ، فهو لا يستقبح الشرّ ، ولا يكف عن المكروه . فهذه الحال أعظم ؛ لأن الأضرار بها أعَمّ ، ولا سلامة من مثله إلا بالبعد والانقباض ، ولا خلاص منه إلا بالصفح والإعراض ؛ فإنه كالسبُع الضارى فى سوارح الغنم ، وكالنار المتأججة فى يابس الحطب ، لا يقرَبُها إلّا تالف ، ولا يدنو منها إلّا هالك .

رَوَى مكحول عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : **«الناس كشجرة ذات جَنى ، ويوشِك أن يعودوا كشجرة ذات شَوك ، إن ناقدتَهم ناقدوك ، وإن هَرَبتَ منهم طلبوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قيل : يارسول الله ، وكيف المخرج ؟ قال : أقرِضهم من عِرْضِك ليوم فاقتك»** .

وقال عبد الله بن العباس : العاقل الكريم صديق كل أحد إلّا من ضرّه ،

والجاهل اللئيم عدوّ كل أحد إلّا من نفعه . وقال : شرّ مافى الكريم أن يمنعك خيره ، وخير مافى اللئيم أن يكف عنك شرّه ؟ وقال بعض البلغاء : أعداؤك : داؤك ، وفى البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء : شرف الكريم ، تغافلهُ عن اللئيم .

ووصّى بعض الحكماء ابنه . فقال : إذا سلم الناس منك ، فلا عليك ألّا تسلم منهم ، فإنه قلما اجتمعت هاتان النعمتان .

وقال عبد المسيح بن عمرو بن بُقيلة :

الخير والشرُّ مقرونـــــان فى قَرَن فالخيــرُ مُسْتَتْبَــعٌ والشرُّ محذورُ

والحال الرابعة : أن يكون صديقا قد استحدث نَبْوة وتغيرا ، أو أخا قد استجدَّ جَفوة وتَنكرا ، فأبدى صفحة عُقوقه ، واطّرح لازم حقوقه ، وعَدَل عن بِرّ الإخاء إلى جفوة الأعداء . فهذا قد يعرِض فى المودّات المستقيمة ، كما تعرِض الأمراض فى الأجسام السليمة ، فإن عُولجت أقلعت ، وأن أهملت أسقمت ثم أتلفت . ولذلك قالت الحكماء : دواء المودة : كثرة التعاهد .

وقال كشاجم :

أَقِـلْ ذا الـوُدّ عَثْرتـه وقِفْـهُ على سَنَـن الطريـق المستقيمـهْ
ولا تُسْرِع بِمعْتبـة إليـهِ فقـد يهفـو ونيتـه سَليمـهْ

ومن الناس من يرى أن متاركة الإخوان إذا نفروا أصلح ، واطراحَهم إذا فسدوا أولى ، كأعضاء الجسد : إذا فسدت كان قطعها أسلم ، فإن شحّ بها سرتْ إلى نفسه ، كالثوب إذا خَلُق ، كان اطراحه بالجديد له أجمل . وقد قال بعض الحكماء : رَغبتك فيمن يزهد فيكَ ذل نفس ، وزهدك فيمن يرغب فيك صِغَر همة . وقد قال بُزُرْجَمِهْر : من تغير عليك فى مودته . فدعه حيث كان قبل معرفته .

وقال نصر بن أحمد الُخبْزَأُرْزِىّ :

صِلْ مَن دنـا وتنـاسَ من بعـدا لا تُكْرِهَـنَّ عَلَـى الهوَى أحَـدا
قد أكثرتْ حوَّاء إذ ولـدتْ فإذا جفـا ولـدٌ فخـذْ وَلَـدا

وهذا مذهب من قل وفاؤه ، وضُعف إخاؤه ، وساءَت طرائقه ، وضاقت خلائقه ، ولم يكن فيه فضل الاحتمال ، ولا صبْر على الإدلال ، فقابل على الجفوة ، وعاقب على الهفوة ، واطَّرح سالف الحقوق ، وقابل العقوق بالعقوق ، فلا بالفضل أخذ ، ولا إلى العفو أخلد ، وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه ، وأن جسمه قد يَسقَم عليه فيؤلمه ويؤذيه ، وهما أخصّ به ، وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فيريد من غيره لنفسه ، مالا يجدُهُ من نفسه لنفسه . هذا عين المحال ، ومَحْض الجهل ، مع أن من لم يحتمل بقى فردا ، وانقلب الصديق فصار عدوا ، وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عَدُوّا . ولذلك قال النبى ﷺ : «**أوصانى ربى بسبع : الإخلاص فى السرّ والعلانية ، وأن أعفوَ عمن ظلمنى ، وأعطىَ من حَرَمنى ، وأصلَ من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عِبرة**» وقال لقمان لأبنه : يابُنَىّ ، لاتترك صديقك الأول ، فلا يطمئنّ إليك الثانى . يابُنى ، اتخذ ألفَ صديق ، والألف قليل ، ولاتتخذ عدوًّا واحدا ، والواحد كثير ، وقيل للمهلَّب بن ابى صُفْرة : ماتقول فى العفو والعقوبة ؟ قال هما بمنزلة الجود والبخل ، فتمسك بأيِّهما شئت .

وأنشد ثعلب :

إذا أنتَ لم تستقبـــل الأمـــر لم تجد بكفـــيك فى إدبـــاره متعلَّقـــا
إذا أنت لم تتـــرك أخـــاك وَزَلَّـــة إذا زَلَّهـــا أوشكتُمـــا أنْ تَفَرَّقـــا

فإذا كان الأمر على ماوَصَفْت ، فمن حقوق الصفح ، الكشفُ عن سبب الهفوة ، ليعرف الداءَ فيعالجه ، فإن من لم يعرف الداء ، لم يقف على الدواء .

كما قد قال المتنبى :

فإنَّ الجرحَ يَنْغَـــرُ بعـــد حيـــنٍ إذا كان البنـــاء على فساد(١٣٦) .

وإذا كان ذلك كذلك ، فلا يخلو حال السبب ، من أن يكون لِملَل أو زَلَل ، فإن كان لَملل ، فمردّات الملول ظلّ الغمام ، وحُلْم النِّيام . وقد قيل

(١٣٦) ينغر : يفسد . أو يسيل دمه . وفى بعض النسخ : يغفر : أى يورم بعد البرء .

فى منثور الحكم : لا تأمننْ لملولٍ وإن تحلى بالصّلة ، وعلاجه أن يُترك على مَلَله ، فيملَّ الجفاء ، كما ملَّ الإخاء .

وإن كان لزلَل لُوحظت أسبابه ، فإن كان لها مَدْخل فى التأويل ، وشُبهة تئول إلى جميل ، حمله على أجمل تأويل ، وصرفه إلى أحسن جهة . كالذى حُكِى عن خالد بن صفوان ، أنه مرَّ به صديقان له ، فعرّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر . فقيل له فى ذلك ، فقال : نَعَم ، عرج علينا هذا بفضله ، وطوانا ذلك بثقته بنا .

وتزعـم للواشيـنَ أنّـىَ فاسدٌ عليك ، وأنى لستُ فيما عَهِدْتِنِى
ومـافسدتْ لى يعلـمُ الله نيـةٌ عليكَ ولكـن خُنْتَنـى فاتهمتِنِـى
غدرتَ بعهـدى عامـداً وَأخفْتِنِـى فخـفتَ وَلـو آمنتنـى لأَمِنْتَنـى

وإن لم يكن لزلَلِه فى التأويل مَدْخَل ، نظر حاله بعد زلله ؛ فإن ظهر ندمه ، وبان خَجَله ، فالندم تَوْبه ، والخَجَل إنابة ، ولا ذنب لتائب ، ولا لوم على مُنيب ، ولايكَلف عُذرا عما سلف ، فيُلجَأ إلى ذل التحريف ، أو خجل التعنيف . ولذلك قال النبىّ ﷺ : **«إياكم والمعاذر، فإن أكثرها مفاجر»** . وقال علىّ رّضى الله عنه : كَفَى بما يُعْتَذَرُ منه تُهْمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر إليه : لا يدْعُوَنَّك أمر قد تخلصتَ منه ، إلى الدخول فى أمر لعلَّك لاتخلصُ منه . وقال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقرارُه ، وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغاء : من لم يقبل التوبة عظمتْ خطيئته ومن لم يحسن إلى التائب ، قبحت إساءته . وقال بعض الحكماء : الكريم مَن أَوْسَعَ المغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المعذِرة .

وقال بعض الشعراء :
العـذرُ يلحقـهُ التحريـفُ والكـذبُ وليسَ فى غير مايـرضيك لى أربُ
وقـد أسأتُ فبالنُّعْمَى التى سلفتْ إلّا مَنَـنْتَ بعفـو مالـه سَبَبُ

وإن عَجّل العُذر قبل توبته ، وقدم التنصُّل قبل إنابته فالعذر توبة ، والتنصل إنابة ، فلا يكشِف عن باطن عُذره ، ولا يُعَنِّف بظاهر غدره ،

فيكونَ لئيم الظفر ، سَيِيء المكافأة . وقد قيل : مَنْ غلبته الحِدّة ، فلا تغترِر بمودّته . وقال بعض الحكماء : شافع لمذنب خضوعه إلى عُذره .

وقال بعض الشعراء :

اِقبَلْ مَعاذير من يأتيـك معتـذرا إن برَّ عندَكَ فيما قالَ أو فَجَـرَا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهـرُه وقد أجَلَّك من يَعْصيك مُسْتَتِـرا

وإن ترك نفسه فى زلله ، ولم يتداركْه بُعذْره وتنصُّله ، ولامحاه بتوبته وإنابته ، راعيت حاله فى المتاركة ، فستجده لاينفك فيها من أمور ثلاثة :

أحدها : أن يكون قد كفّ عن سَيِيء عمله ، وأقلعَ عن سالف زَلَله ؛ فالكف إحدى التوبتين ، والإقلاع أحد العُذْرين ، فكن أنت المعتذر عنه بصفحك ، والمتنصِّل له بفضلك . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : المحسِن على المسيء أمير .

والثانى : أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله ، غير تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البُرْءين ، وكفه عن الزيادة إحدى الحُسْنَيين ، وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه . فعوّل به على صلاح شطره الآخر ، وإياك وإرجاءَه ، فإن الإرجاء يفسد شطر صلاحه ، والتلافى يُصلح شطر فساده ، فإن من سَقِم من جسمه مالم يُعالجه ، سَرَى السُّقْم إلى صحته ، وإن عالجه سرت الصحة إلى سَقَمه .

والثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام . فهذا هو الداء العُضال ، فإن أمكن استدراكه ، وتأتى استصلاحُه وذلك باستنزاله عنه إن علا ، وبإرغابه إن دنا ، وبعتابه إن ساوَى ، وإلّا فآخرُ الداء العَياء الكيّ . ومن بَلَغتْ به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمة عليه ، والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل : من سلَّ سيف البغى : أغمدَه فى رأسه ، فهذا شرط .

وأما المسامحة فى الحقوق ، فلأن الاستيفاء مُوحش ، والاستقصاء منفِّر . ومن أراد كل حقّه من النفوس المستصعبة ، بشحّ أو طمع ، لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقة ، ولم يقدر عليه إلا بالمخاشنة والمشاحّة ، لما استقرّ فى الطباع

من مَقْت من شاقّها ونافرها ، وبغض من شاحّها ونازعها ، كما استقرّ حُب من ياسرها وسامحها ، فكان أليق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة ، وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء : من عاشر إخوانه بالمسامحة ، دامت له مودّاتهم . وقال بعض الأدباء : إذا أخذتَ عفوَ القلوب زكا رَيْعك ، وإنِ استقصَيت أكْدَيت .

المسامحة نوعان

والمسامحة نوعان : فى عقود ، وحقوق .

فأما العقود ، فهو أن يكون فيها سهل المناجزة ، قليل المحاجزة ، مأمون الغَيبة ، بعيدا من المكر والخديعة . رُوِى عن النبىّ ﷺ أنه قال : **«أَجْمِلوا فى طلب الدنيا ، فإنّ كلّا مُيسَّرٌ لما كُتب له منها»** . وقال ﷺ : **«ألا أدلكم على شىء يحبه الله تعالى ورسوله ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : التغابُن للضعيف»** . وحَكى ابنُ عون : أن عمر بن عبد الله اشترى للحسَن البصرىّ إزارا بستة دراهمَ ونصف ، فأعطى التاجر سبعة دراهم ، فقال : ثمنه ستة دراهم ونصف . فقال : إنى اشتريته لرجل لايقاسم أخاه درهما . ومن الناس من يرى أن المساهلة فى العقود عجز ، وأن الاستقصاء فيها حَزْم ، حتى إنه لينافس فى الحقير ، وإن جاد بالجليل الكثير ، كالذى حكى عبد الله بن جعفر وقد ماكس فى درهم ، وهو يجود بما يجود به . فقيل له فى ذلك ، فقال : ذلك مالى أجود به ، وهذا عقلى بخلت به . وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة فى دفع مايخادعهم به الأدنياء ، ويُغابنهم به الأشحاء ، وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر . فأما مُماكسة الاستنزال والاستسماح ، فكَلا ، لأنه مناف للكرم ، ومناف للمروءة .

وأما الحقوق فتتنوَّع المسامحة فيها نوعين : أحدهما : فى الأحوال ، والثانى : فى الأموَال .

فأما المسامحة فى الأحوال ، فهى اطراح المنازعة فى الرُّتب ، وترك المنافسة فى التقدم ، فإن مُشاحَّة النفوس فيها أعظم ، والعناد عليها أكثر ، فإن سامح فيها ولم ينافس ، كان مع أخذه بأفضل الأخلاق ، واستعماله لأحسن الآداب أوقع فى النفوس من إفضاله برغائب الأموال ، ثم هو أزيد فى رتبته ، وأبلغ فى تقدّمه ، وإن شاحّ فيها ونازع ، كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق ، واستعماله لأهجن الآداب ، أنكى فى النفوس من حد السيف وطعن السنان ، ثم هو أخفض للمرتبة ، وأمنع من التقدم .

حُكىَ أن فتى من بنى هاشم تخطَّى رقاب الناس عند ابن أبى داود فقال : يابُنىَّ ، إن الآداب مِيراث الأشراف ، ولست أرى عندك من سَلَفك إرثا .

وأما المسامحة فى الأموال ، فتتنوع ثلاثة أنواع : مسامحة إسقاطٍ لعَدَم ، ومسامحة تخفيفٍ لعجز ، ومسامحة إنكار لعُسرة ، وهى مع اختلاف أسبابها تفضُّلٌ مأثورٌ ، وتألف مشكور . وإذا كان الكريم . قد يجود بما تحويه يده ، وينفذ فيه تصرّفه ، كان أولى أن يجود بما خرج عن يده ، فطاب نفسا بفراقه . وقد تصل المسامحة فى الحقوق إلى من لايقبل البرّ ، ويأبى الصلة ، فيكون أحسن موقعا ، وأزكى مَحَلا ، وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل ، ومنع المجتدِى ، لأن السائل كما اجترأ على سؤالك ، فسيجترىء على سؤال غيرك إن رددته ، وليس كل من صار أسيرَ حقك ، ورهين دينك ، يجدُ بدّا من مسامحتك ومياسرتك ، ثم لك من ذلك حسن الثناء ، وجزيل الأجْر .

وقال محمود الورَّاق رحمه الله :

المرءُ بعـــد الموتِ أحدوثـــةٌ يفنَـــى وتبَقـــى منـــه آثـــارُهُ
فأحسنُ الحالات حالُ امـــرىء تطـــيبُ بعـــد الموت أخبـــارُهُ

فهذه حال المُياسرة .

الإفضال نوعان

وأما الإفضال فنوعان : إفضالُ اصطناع ، وإفضال استكفاف ودفاع .

فأما إفضال الاصطناع فنوعان : أحدهما : ماأسداه جودا فى شَكور والثانى : ماتألف به نَبْوَةَنَفُور ، وكلاهما من شروط المروءة ، لما فيها من ظهور الاصطناع ، وتكاثر الأشياع والأتباع ، ومن قلت صنائعه فى الشاكرين ، وأعرض عن تألّف النافرين ، كان فردا مهجورا ، وتابعا محقورا ، ولا مروءة لمتروك مُطَّرح ، ولا قَدْر لمحقور مهتضم . وقال عمر بن عبد العزيز : ماطاوعنى الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طَرَفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء : أقلّ مايجب للمنعم بحقّ نعمته ، ألّا يتوصل بها إلى معصيته :

وأنشدت لبعض الأعراب :

من جمعَ المالَ ولم يجُـد بِهِ وجَمَّـعَ المالَ لعـام جَدْبِـهِ
هانَ على الناسِ هوانَ كَلْبِهِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

يبقَى الثناءُ وتذهبُ الأموالُ ولكلِّ دهر دَوْلَـة ورجالُ
مانالَ مَحمدةَ الرجالِ وشُكرَهم إلا الجوادُ بمالِـه المفضالُ
لاترض من رجلٍ حَلاوةَ قولِه حتى يُصدِّقَ مايقولُ فِعالُ

فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله ، فقد عَدِم من آلة المكارم عمادها ، وفقد من شروط المروءة سِنادها ، فلْيؤاسِ بنفسه مؤاساة المسعِف ، ولْيُسْعِد بها إسعاد المتألّف .

قال المتنبى :

فلْيُسْعِدِ النطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ(١٣٧)

(١٣٧) عجز بيت للمتنبى فى الأمير فاتك . وصدر البيت :
لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ .

وإن كان لايراها وإن أجهدها ، إلا تبعا للمُفْضِلين ، قليلة بين المكثرين ، فإن الناس لايساوُون بين المعطِي والمانع ، ولا يُقْنعهم القول دون العمل ، ولايغنيهمُ الكلام عن المال ، ويَرَوْنه كالصَّدَى : إن ردّ صوتا ، لم يُجْد نفعا .

كما قال الشاعر :

يجودُ بالوعـــــد ولكنَّـــــه يَدْهُــــن من قارورةٍ فارغَـــــهْ

فكل ماخرج عندهم من المال كان فارغا ، وكل ماعدا الإفضال به كان هيّنا . وقد قدّمنا من القول فى شروط الإفضال ماأقنع .

وأما إفضال الاستكفاف ، فلأن ذا الفضل لايعدَم حاسد نعمة ، ومعاند فضيلة ، يعتريه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه ، فإن غفل عن استكفاف السفهاء ، وأعرض عن استدفاع أهل البَذاء ، صار عِرْضه هَدَفا للمثالب ، وحاله عُرْضة للنوائب ، وإذا استكف السفيه ، واستدفع البذىّ ، صان عِرضه ، وحمى نعمته . وقد رُوِى عن النبى ﷺ ، أنه قال : **«ماوَقَى به المرء عِرضَه ، فهو صدقة»** . وقالت عائشة رضى الله عنها : **«ذبُّوا بأموالكم عن أحسابكم»** . وامتدح رجل الزُّهْرىّ ، فقال له رجل : أتعطى على كلام الشيطان ؟ فقال : من ابتغى الخيرَ اتقى الشر ، ولذلك قال النبى ﷺ : **«مَنْ أراد برّ الوالدين فليعطِ الشعراء»** . وهذا صحيح ؛ لأن الشعر ساتر ، يُستر به ماضمن من مدح أو هجاء ، ومن أجل ذلك قيل : لا توُاخ شاعرا ، فإنه يمدحك بثمن ، ويهجوكَ مجّانا .

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان : أحدهما : أن يخفيه ، حتى لاتنتشر فيه مطامع السفهاء ، فيتوصلوا إلى اجتذابه بسببه ، وإلى ماله بثلْبه . والثانى : أن يتطلب له فى المجاملة وجها ، ويجعل فى الإفضال عليه سببا ، لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البَذاء .

واعلم أنك ماحييت ، ملحوظ المحاسن ، محفوظ المساوِى ، ثم من بعد ذلك حديث منتشر ، لايراقبك صديق ، ولا يحامِى عنك شقيق ، فكن أحسن حديث ينشَر ، يكن سعُيك فى الناس مشكورا ، وأجرك عند الله

مذخُورا . فقد رَوَى زياد بن الجراح ، عن عمرو بن ميمون : أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**اغتنم خمساً قبل خمس : شبابَك قبل هَرَمِك ، وصحتَك قبل سَقَمِك ، وغناك قبل فَقْرك ، وفراغَك قبل شُغُلك ، وحياتَك قبل مَوْتِك**» .

فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الرسالة الرابعة

الحرص على المروءة

وهاهى ذى
رسالة من صاحب «زهر الآداب
وثمر الألباب» الذى يعدونه
فى المغرب العربى دائرة معارف أدبية
إنه يشير إليك ، وينصح قرَّاءَه بالحرص
عليك .
قالت : لم أفقد الأمل فى المغرب
العربى .. كما لم أفقد الأمل فى
شرقنا العربى .. حيث تمتد بلاد
الإسلام .. فهناك كان
أهلى وناسى !!

لأبى إسحق الحُصْرى القيراونى المتوفى سنة ٤٨٨هـ

الحرص على المروءة

كان عبد الملك يقول :

يابنى أمية ، أحسابُكم أعراضُكم !!

لاتعرضوها على الجهال ؛ فإن الذَّمَّ باقٍ مابقى الدهر !! والله ماسرَّنى أنّى هُجيتُ بيت الأعشى ، ولى طِلَاعُ[١٣٨] الأرض ذهبا !!

وهو قوله فى علقمة بن علانة :

يبيتون فى المشْتَى مِلاءً بطونُهم وجاراتهم غَرْثَى يبتن خمائصاً[١٣٩]

ووالله مايبالى من مُدح بهذين البيتين ألا يُمْدَح بغيرهما :

هُنَالِكَ إن يُستَخبلوا المالَ يخبَلُوا وإن يُسألُوا يُعطُوا ، وإن يُيْسَروا يُغلُوا[١٤٠]

على مكثريهم حقُّ من يعتريهمُ وعند المقلين السماحة والبذلُ

مروءة أبى عبد الله معاوية بن بشار .

قال عمران بن شهاب :

استعنت على أبى عبد الله فى أمر ببعض إخوانه .

وكان قد تقدَّم سؤالى إياه فيه ؛ فقال لى :

لولا أن حقَّك لا يُجْحَد ولايضاع ؛ لحجبت عنك حسن نظرى ! أظننتنى أجهلُ الإحسانَ حتى أُعلِّمه ؟!

---

(١٣٨) طلاع الأرض ملؤها

(١٣٩) غرثى : جياع ، وخماص : خالية البطون . وعكسها : بطان .

(١٤٠) استخبله المال . استعارة إياه ليستمتع به .

ولا أعرف مواضِعَ المعروف حتى أُعَرَّفه ؟!

لو كان لا يُنَال ماعِندى إلا بغيرى ؛ لكنت مثل البعير الذلُول ؛ يُحْمَلُ عليه ، ولا يمل الثِّقل ! ؛ إن قيد انقاد ، وإن أُنِيخَ برك ؛ لا يملك من نفسه شيئا .

فقلْت : معرفتك بموضع الصنائع أثبتُ معرفة .

ولم أجعلْ فلاناً شفيعاً إنما جعلت مذكراً .. !!

قال : وأى إذكارٍ أبلغ عندى فى رغْى حَقِّك من مسيرك إلىَّ ، وتسليمك علىّ ؟!!

إنه متى لم يتصفح المأمولُ أسماء مؤمليه غدوةً ورواحاً لم يكن للأمل محلًا !!

وجرى عليه الغدرُ لمؤمليه بما غدر ، وهو غير محمود على ذلك ولا مشكور !!

ومالى إمام بعد وردى من القرآن إلا أسماء أهل التأميل ، حتى أعرضهم على قلبى !

فلا تَستَعن على شريف إلا بشرفه ؛ فإنه يرى ذلك عيبا لعرفه !!

وأنشد :

وذاك امــرؤ إن تأتــه فى عظيمــةٍ إلى بابِــه لا تأتـــه بشفيــــع!!

ومن توقيعاته :

- الحقُّ يُعْقِبُ صُلْحاً وظفراً
- والباطِل يورثُ كذباً وندماً

وكتب إليه رجل : والنفس مُولَعةٌ بحب العاجل ! فَكتب إليه : لكن العقلَ الذى جعله الله للشهوة زماما ، وللهوى رباطاً موكّلً بحب الآجل ، مستصغر لكل كثِير زائل !!

الرسالة الخامسة

مطلب المروءة

وهذه رسالة هامة
من رائد من رواد مصر جاء مع
مشارف القرن التاسع عشر وحمل لواء
النهضة الحديثة .. وحين عاد من باريس
بعلمه الحديث قرر أن يقيم الدولة على
العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس
يجدى .. إنه شيخنا «رفاعة رافع الطهطاوى»
الذى جعل للمروءة فى مؤلفاته مطلبا
وخصص لها جانبا

الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٠١/١٨٧٣م

مع رائد النهضة
فى العصر الحديث

.. وعلى مشارف العصر الحديث .. ومع طلائع النهضة الفكرية والاجتماعيّة النى جاءت فى كتابات الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» — نقف بين يدى أحد كتبه :

«مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» والكتاب ملىء بالمطالب التى تتحقق بها النهضة وعلى رأس تلك المطالب :

«مطلب المروءة»

وحسبك أيها القارىء العزيز أن تعيش مع صاحب هذا الفكر المتوقد ، والقلم الذى لم يتوقف يوما واحداً عن خدمة العلم والثقافة فى مدى نصف قرن من عمر دام اثنين وسبعين عاما.

(١٢١٦ هـ ١٨٠١م — ١٢٩٠هـ ١٨٨٣م)

سوف نعيش مع الرجل الذى لم يتخلَّ عن مروءته يوم أن عاد من فرنسا يحمل معه أسس النهضة وتباشير المدنية !

هذا الرجل الذى امتد نشاطه إلى الأزهر ، والجيش ، ومدرسة الطب ، ومدرسة المدفعية ، ومدرسة الألسن ، فكان له فى كل منها أثر مباشر ظهر فى تعليمه ، وتلاميذه وكتبه ، وكان له أثر غير مباشر تلقته الأمة بعد ذلك عن تلاميذه ، وعن مدرسته الفكرية التى أنشأها .

رجل شملت معارفه التى بثها بين قومه تدريسا ، وتأليفا وترجمة : علم الكلام ، والفقه ، والنحو ، والحديث ، والبلاغة والأدب والتاريخ ، والجغرافية ، والتربية ، والسياسة ، والاجتماع ، والقانون ، والاقتصاد .

وهذه فى ذاتها مجموعة ثرية بالفكر ، خصبة بالعلم ، لو أن جهوده قصرت عليها لكانت موسوعة مناسبة لزمنه ، ولكنه ضم إليها فى وقت كانت البلاد أحوج ماتكون إلى فروع أخرى من المعرفة .. ضم إليها .. الهندسة والصحة ، والطب ، والفنون الحربية ، وعلم المعادن .

والعجيب فى أمر هذا الرجل العبقرى أنه لم يكن موفداً إلى فرنسا لدراسة العلم فى البعثة المصرية ، وإنما كان اختياره ليرافق البعثة إماما لأعضائها ، وواعظا لهم .

ولكنه نزل الميدان أحرص من طلاب البعثة أنفسهم حتى لقد تألق اسمه بينهم ، ودانوا له بالزعامة العلميّة ، كما دانوا له بالزعامة الروحية .

ولاشك أنه كان لاستقامته ، وهو فى باريس أعظم الأثر فى تمكينه مما قام به من الدراسات .. ويكفى أن يقول عنه أستاذه الفرنسى الذى عاشره أربعة أعوام :
«لم أرَفيه إلا مايدعو إلى الرضا .... سواء فى تَعَلُّمِه وفى سلوكه الذى كان يمتاز : بالحكمة ، والاحتراس ، وحسن الخلق ، ولين العريكة» .

ويقول عنه تلميذه وصفيُّه الأستاذ صالح مجدى : «قال لى من أثق به ممن كانوا معه فى باريس :

إنه كان يؤدى الفرائض والسنن . ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه . وواظب على تلاوة القرآن» .

وبعد :

فلقد عاش «رفاعة» حياة كاملة :

أدى فيها حق الله تعالى !
وحقّ الوطن !
وحقّ الإقليم !
وحقّ الأسرة !
وحقّ نفسه !

وبلغ قمة المروءة !!

فلا عجب أن يُفْرِدَ لها «مطلبا» يتناولها فيه ، بعد أن عاد إلى وطنه .. وكأنما قَدْ رأى «أهل المروءة دون خلق الله ماتوا» !! ، فراح يستعيدها من جديد .. فكل مايقوم على غير المروءة لايغنى ولايفيد !! .

مطلب المروءة
لرفاعة رافع الطهطاوى

حقائق الإيمان :

ويُقالُ ثلاثَةٌ من حقائق الإيمان :

الاقتصادُ فى الإنفاق .
والإنصاف من نفسِك .
والابتداءُ بالسـلام .

وضابطُ الاقتصادِ فى الإنفاق :

أن مادبَّره العقلُ ، وناله الفضلُ فهو الاقتصادُ الجميلُ الحسن .

فالعقل السليم لايميل إلى الفرط ، ولا إلى الشطط بل يتبع الوسط الذى هو خير الأمور .

مظاهر المروءة ودلائلها :

ومن شواهدِ فضيلةِ البِرِّ ، ودَلَائِلِ الكرم ، والإنفاق :

«المروءة»

التى هى حِلْيةُ النفوسِ ، وزينةُ الهمم ، وهى مجاراة النفسِ على أفضلِ أحوالِهَا .

رُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال :

«من عاملَ الناسَ فلمه يظْلِمْهم ..
وحدَّثهمُ فلم يَكْذِبْهُمْ ..
ووعدَهم فلم يُخْلِفْهُمْ ..

فهو ممن كَملَتْ مُروءَتُه ..
وظَهَرتْ عَدَاَلتُه ..
ووجَبَتْ أُخُوَّتُه ..
وحَرُمت غِيْبَتُه» ..

الفرق بين العقل والمروءة :

وسُئِلَ بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال :

العقلُ يأمُرك بالأنفع
والمروءَةُ تأمُرك بالأرفع

من أولئك الذين ينقادون للمروءة ؟

ولاينقاد للمروءة مَعَ ثِقَلِ تَكَلُّفِها إلا من سَهُلَتْ عليه المشاقُّ رغبةً فى المحمدة ، وهانت عليه الملاذُّ حَذَرا من المَذَمّةِ .

ولذلك قيل :

«سَيِّدُ القوم أشقاهم»

أى أكثرهم مَشَقَّة ، قال المتنبى :

لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ ... الجودُ يُفْقِرُ ، والإقدام قَتَّالُ

وقال :

إذا كانت النفوس كباراً ... تَعِبَتْ فى مُرَادِهَا الأجسامُ

دواعى استسهال الصعب فى سبيل التمسك بالمروءة :

والداعى إلى استسهال الصعب فى التمسك بالمروءة شيئان :

١ ــ علو الهمة .

٢ ــ وشرف النفس .

فأما عُلُوُّ الهِمَّةِ ؛ فإنه باعثٌ عَلَى التَّقَدُّم ، وداعٍ إلى التخصُّص ؛ أَنَفَةً من خمولِ الضَّعَة ، واستكبارا لمكانةِ النَّقْصِ !!

وفى الحديث الشريف :

«إن الله تعالى يُحِبُّ معالىَ الأمور ويكرهُ سفسَفافها» .

وأما شرفُ النفس :

فبه يكون قبولُ التأديب ، وتقويم التهذيب ؛ فإذا شَرُفَتْ النَّفْس كانت للآداب طالبة ، وفى الفضائل راغبة .

فإذا تجَرَّدَ شرفُ النفس عن عُلُوِّ الهِمَّة ، كان الفضل به عاطلًا ، حتى قيل :

إن شرف النفس مع صِغَر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس ؛ لأن من غلبت عليه همته ، مع دناءة نفسه ، كان متعدِّياً إلى طلب مالا يستحقه ، ومُتَخَطِّياً إلى التماس مالا يستوجِبُه .

ومن شرفت نفسُه مع صغر همته ، فهو تارك لما يستحقه ، ومُقَصِّرٌ عما يجب له !!

والفرق بين الأمرين ظاهر ، وإن كان لكلِّ واحدٍ منهما من الذم نصيب !

قال الشاعر :

إن المروءَةَ ليس يُدْرِكُها امْرُؤٌ ... وَرِثَ المكارِمَ عن أَبٍ فأضاعَها

أمرته نَفْسٌ بالدَّناءَةِ والخَنَا ... ونَهَتْه عن سُبلِ العُلَا فأطاعها

فإذا أصابَ من المكارِمِ خَلَّةً ... يبنى الكريمُ بها المكارمَ باعَها !!

من كامل المروءة ؟

الكامل المروءة :

من حَصَّنَ دِيْنه ، ووصَلَ رَحِمَه ، وأكرمَ إخوانَه .

وقال بعض الحكماء : كاملُ المروءة :

من أَحَبَّ المكَارِمَ ! ، واجتنب المحارِمَ !

فالبِرُّ الحقيقى المذكور فى قوله تعالى :

﴿**لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ .(١٤١) حليف للمروءة الكاملة .

ويطابق هذه الآية الشريفة قولهﷺ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث :**

صدقةٍ جارية
أوعِلْمٍ ينتفَعُ به
أو ولَدٍ صالح يدعوله»

(رواه الإمام مسلم ــ رضى الله عنه ــ بلفظ : «**إذا مات المسلم**» بدل «**ابن آدم**» .

فقد حث الحديث النبوى على ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين :

فى حق صاحب العمل تديم عَمَلَه ، وتجعله باقياً كأن صاحِبَ العَمَلِ حيٌّ بعمله ، مأجورٌ دائماً .

فهذه فضائلُ مُخَلِّدَةٌ للذِّكْرِ ، مؤبِّدَةٌ للأجر .

وبِضِدِّها تتميَّزُ الأشياء ؛ فإن من لاصدقةَ له فى حياته ، ولا عِلْمَ ، ولا ذُرِّيَّة ، فعمله مقطوعٌ من أصله !!

فهو مَيّتُ الأحياء ؛ حيث عَدِم الفضائل الثلاث .

---

(١٤١) آل عمران ٩٢

الرسالة السادسة

المروءة ومظاهرها الصادقة

وها هو ذا ــ أيتها المروءة ..
مولانا الخضر حسين شيخ الإسلام الأسبق ،
وشيخ الجامع الأزهر يشيد بك فى رسالة من
رسائل إصلاحه ، ويحدث المسلمين عنك ويرشدهم إليك ..
وإلى مظاهرك الصادقة فى كل زمان ومكان
ويناشدهم أن يربوا أبناءهم
على رعايتك

فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر

المروءة ومظاهرها الصّادقة

منزلتها :

خصلة رفيعة القدر . تجرى فى منشآت الأدباء . ويتحدث عن معناها فى علوم اللغة والشريعة والأدب والأخلاق ، تلك الفضيلة هى : المروءة .

المروءة عند الأدباء

ننظر فى منشآت الأدباء من منظوم ومنثور ، فنجد لفظ المروءة وارداً فى مقامات المدح ، كما قال زياد الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج :

إن السماحة والمروءة والندى   فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أو الفخر كما قال أحد شعراء الحماسة :

عادوا مروءتنا فضلل سَعيهم   ولكل بيت مروءة أعداء

وقالوا فى الذم : فلان زمن المروءة : أى أن مروءته دارسة بالية .

المروءة فى كتب اللغة

وننظر فى كتب اللغة ، فنجدها تقول : المروءة : الإنسانية أو كمال الرجوليه ، أو الرجولية الكاملة . وكمال الرجولية ينتظم من الأخلاق الحميدة ، والآداب السامية . فالمروءة إذاً هى جماع مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، فمن يفوته جانب من هذه المكارم أو المحاسن ، فوته جانب من العناصر التى تتكون منها المروءة .

ولاشتمالها على جملة الفضائل يقتصر بعض الأدباء عليها فى مقام إيجاز المديح كما قال سعيد بن حميد يعاتب صديقاً له :

ولئـــن سبـــقت لتبـــكين بحسرة   وليـــكثرن على منك عويـــــل
ولـــن سبـــقت ولاسبـــقت ليمضين   من لا يشاكلـــــه لدى خليـــــل
وليذهبـــــــــن بهاء كل مروءة   وليفقـــــدن جمالها المأهـــــول

المروءة فى كتب الشريعة

وننظر فى كتب الشريعة ، فنجد المروءة وارادة فيما يروى من الأحاديث النبوية ، ونجد الفقهاء يذكرونها فى بعض أبواب الفقه ، ككباب القضاء ، وباب الشهادة ، ويقولون : المروءة صيانة النفس عن كل خلق ردىء ، والسمت الحسن ، وحفظ اللسان ، وتجنب السخف والمجون . وقال آخرون منهم : المروءة أن لا يأتى الإنسان مايعتذر منه مما يحط مرتبته عند أهل الفضل ، قال ابن سعيد يوصى ابنه :

وكل مايـــــفضى لعــــــــذر فلا   تجعله فى الغربـــة من إربـــتك(١٤٢) .

ومايقوله علماء الشريعة غير بعيد مما يقوله علماء اللغة من أن المروءة كمال الرجولية .

المروءة فى كتب الأدب

وننظر فى كتب الأدب ، فنجدها تسوق لبعض بلغاء الرجال وحكمائهم عبارات تشير إلى بعض الواجبات والآداب التى تقوم عليها المروءة . كما قال الأحنف بن قيس : المروءة العفة والحرفة . وقال ميمون بن ميمون : أول المروءة طلاقة الوجه ، والثانى التودد ، والثالث قضاء الحوائج . وقال مسلم بن

---

(١٤٢) الإربة : المأرب والحاجه .

قتيبة : المروءة الصبر على الرجال ، أى الصبر على المكاره فى معاشرتهم وقضاء مآربهم . وقال ابن هبيرة : المروءة إصلاح المال ، والرزانة فى المجلس ، والغداء والعشاء فى الفناء . ويريد من إصلاح المال تنميته والتصرف فيه على وجه الصلاح ، وكنى بالغداء والعشاء فى . الفناء عن الكرم والسخاء . وقال معاوية : المروءة ترك اللذة .

واللذات التى يعد تركها مروءة هى اللذات المحظورة على الإطلاق . واللذات الملهية عن الازدياد من الحمد وإن لم تكن من المحظورات .

نوم الغــــداة وشرب بالعشيـــــات موكـــــــــــلان بتهديم المروءات

وعبارات هؤلاء البلغاء والحكماء لا تخالف قول اللغويين : المروءة كمال الرجولية ، لأن البلغاء قد يتسامحون فى بيان معانى الألفاظ ، فيقتصر الواحد منهم على بعض المعنى اهتماماً بشأنه ، وحرصاً على أن يضعه نصب عين السائل ، ليكون ذلك أدعى إلى عنايته به ، ومحافظته عليه .

المروءة فى كتب الأخلاق

وننظر فى كتب الأخلاق ، فنرى بعضها يفسر المروءة بعظم النفس . ووجه هذا التفسير أن عظم النفس هو المنمى لمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وعلى هذه المكارم والمحاسن يقوم كمال الرجولية .

ولا خلاف بين من تحدثوا عن المروءة أن هناك آداباً لا يعلو مقام الرجل فى المروءة إلا بالمحافظة عليها . وبين أيدينا منابع للمروءة عذبة صافية هى الكتاب الحكيم ، وسيرة النبى الكريم صلوات الله عليه . وإن فى آثار العظماء من السلف بعد ذلك لعبرة .

المروءة فى آثار السلف الصالح

وها أنا أسوق إلى حضراتكم جملة من تلكم الآداب كأمثلة يزداد بها معنى المروءة وضوحاً ، فأقول :

من أدب صاحب المروءة أن يكون ذا أناة وتؤدة ، فلا يبدو فى حركاته اضطراب أو عجلة ، كأن يكثر الالتفات فى الطريق ، ويعجل فى مشيه العجلة الخارجة عن حد الاعتدال ، وأما السرعة بمعنى عدم التباطؤ والتثاقل ، فدليل الحزم ، والحزم من مقوملت المروءة .

ويتصل بهذا الأدب أن يكون الرجل متئداً فى كلامه : يرسل كلماته مفصلة ، ولايخطف حروفها خطفاً حتى يكاد بعضها يدخل بعضاً .

وحيث كان لحسن البيان دخل فى كمال الرجولية ، صح أن يعد فى مظاهر المروءة . وينبه لهذا قول عمر بن الخطاب : تعلموا العربية ، فإنها تزيد فى المروءة . ومن أدب صاحب المروءة أن يضبط نفسه عن هيجان الغضب أو دهشة الفرح ، ويقف موقف الاعتدال فى حالى الضراء والسراء .

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولاجازع من صرفه المتقلب

ومن هنا نرى ذا المروءة لاتطيش به الولاية فى زهو ، ولاينزل به العزل فى حسرة . عدل معاوية عن تولية الأحنف بن قيس ثغر الهند فقال له رياد : إن الأحنف بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ، ولايضره العزل . وقال قاضى قرطبة محمد بن بشير : والله لا أبالى فى الحق من مدحنى أو ذمنى ، وما أسر للولاية ، ولا أستوحش من العزل .

ومن أدب صاحب المروءة : الصراحة والترفع عن المواربة والنفاق فلا يبدى لشخص الصداقة وهو يحمل له العداوة ، أو يشهد له باستقامة السيرة وهو يراه منحرفاً عن السبيل .

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى   وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى

والمراد أن صاحب المروءة لا يتخذ الظهور بخلاف مايضمر عادة مثل مايفعل قوم لاتشمئز نفوسهم من الملق والرياء ، أما إذا اقتضت الحكمة إخفاء بعض مايضمر من نحو العداوة والصداقة ، فإن اتباع ماتقتضيه الحكمة ، من مكملات المروءة .

ويتصل بهذا الأدب أدب آخر هو أن لايفعل الرجل فى الخفاء ما لو ظهر للناس لعدوه من سقطاته . وقد رفع محمد بن عمران التيمسى شأن هذا الأدب حتى جعله هو المروءة ، فقال لما سئل عن المروءة : أن لا تعمل فى السر ماتستحى منه فى العلانية .

وعمل القبيح فى السر يدل على أن تجنبه فى العلانية تصنع ورياء . والمروءة أن يجتنب الرجل القبائح لقبحها ووخامة عاقبتها .

وإذا وجد فى الناس من فيه استعداد لأن يعاشر من يحملون له فى أنفسهم عداء واستهانة بشأنه ، ولا يبالى أن يلاقيهم صباحاً ومساء لغير ضرورة ، فإن صاحب المروءة يستطيع أن يلاقى الناس بطلاقة وجه ، ولسان رطب ، غير باحث عما تكنه صدروهم من مودة أو بغضاء ، ولكنه لا يستطيع أن يرافق ويعاشر إلا ودوداً مخلصاً .

وعش إما قرين أخ وفى   أمين الغيب أو عيش الوحاد

ويطلق خفيف الوزن لسانه فى أعراض الناس يلتقط معايبهم ، أو يختلق لهم معايب ، متخيلا أنه يحظى باسم المروءة من إلصاق العيب بغيره والعرب تقول : «فلان يتمرأ بنا» أى يطلب المروءة بنقصنا وعيبنا .

أما صاحب المروءة الصادقة ، فيبخل بوقته عن هذه الطوية الحقيرة ، ولا يرضى إلا أن يشغله بما تتقاضاه المروءة من حقوق ، قال رجل لخالد بن صفوان : كان عبدة بن الطيب لا يحسن يهجو ، فقال له : لاتقل ذلك فوالله ما تركه من عى ولكنه كان يترفع عن الهجاء ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفاً ، وأنشد قول أبى الهيذام :

وأجـــرأ من رأيت بظهــــر غيب على عيب الرجـــال ذوو العيـــوب

وربما اضطر ذو المروءة أن يدافع شر خصومه الكاشحين بذكر شيء من سقطاتهم ، ولكن المروءة تأبى له أن يختلق لهم عيباً يقذفهم به وهم منه براء ، فإن الإخبار بغير الواقع يقوض صرح المروءة ، ولايبقى لها عيناً ولا أثراً ، قال الأحنف : لا مروءة لكذوب ، ولا سؤدد لبخيل

ويتصل بهذا الأدب أن المروءة تحفظ لسان صاحبها أن يلفظ مثلما يلفظ أهل الخلاعة من سفه القول :

وحذار من سفه يشينك وصفه إن السفاه بذى المروءة زارى

ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنب الرجل تكليف زائريه ولو بعمل خفيف ، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب ، فيطلب منه مناولته إياه ، أو يكون بجانبه الزر الكهربائى فيشير إليه بالضغط عليه لإنارة المنزل أو استدعاء الخادم ، قال عمر بن عبد العزيز : «ليس من المروءة استخدام الضيف» .

والمروءة تنادى صاحبها أن يسود فى مجلسه الجد والحكمة ، وأن لا يلم فى حديثه بالمزاح إلا إلماماً مؤنساً فى أحوال نادرة ، قال الأحنف بن قيس : «كثرة المزاح تذهب المروءة» ووجه ذلك أن الذى يسرف فى المزاح يكثر منه الوقوع فى لغو الحديث ، ولا يخلو من أن تصدر منه كلمات تؤذى بعض جلسائه ، وكمال الإنسانية لايلتقى بلغو الحديث ، أو إيذاء بعض الإخوان فى مجلس .

ومن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان ، فإن إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدل على ارتياحه لمجالسته ، وأنسه بحديثه ، وجاء فى الحديث الشريف : «من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه» وإلى هذا الأدب الجميل يشير أبو تمام بقوله :

من لى بإنسان إذا أغضبتـــــــــه ورضيت كان الحلـــم رد جوابــــه
وتـــراه يصغـــى للحـــديث بقلبـــه وبسمعــــه ولعلــــــه أدرى به

وشأن ذى المروءة أن يحتمل ضيق العيش ، ولا يبذل ماء حيائه وكرامته

فى السعى لما يجعل عيشه فى سعة ، أو يديه فى ثراء ، قال مهيار :

ونـــــــــفس حرة لا يزدهيها حلى الدنيـــا وزخرفهـــا المعـــــر
يبــــيت الحق أصدق حاجـــتيها وكسب العـــز أطـــيب ما يمار

وذو المروءة لايظهر الشكوى من حوادث الدهر إلا أن يتقاضى حقاً :

لايفرحـون إذا ماالدهـر طاوعهـــم يومـاً بيسر ولايشكـون إن نكبـــوا

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى فى عمر بن عثمان بن عفان :

فتى غير محجوب الغنى عن صديقـه ولامظهـر الشكـوى إذ النعـل زلت

ويعد فى مروءة الرجل أن يكون حافظاً لما يؤتمن عليه من أسرار ، قال المتنبى من أبيات جعلها خطاباً لمن أودعه ، وخشى منه إذاعته :

كفـــــتك المروءة ما تتقـــــى وأمـــــنك الـــــود ما تحذر

يريد أنه ذو مروءة ، وذو المروءة لايفشى سراً ، اؤتمن عليه .

وذو المروءة يحذر أن يؤذى شخصاً ما ، وأشد ما يحذر أن يؤذى ذا مروءة مثله :

وأستحيـــــــى المروءة أن ترانى قتــلت مناسبـــى جلــداً وقهـــراً

فى المروءة راحة ولذة :

إذا كانت المروءة تقتضى الإعراض عن كثير من اللذات ، فإن فى المروءة نفسها لذة تفوق كل نعيم فى هذه الحياة ، وإن كان فى حفظ المروءة ملاقاة كثير من المشاق ، فإن راحة الضمير التى يجدها الرجل عندما يبلغ فى المروءة غاية سامية تنسيه كل مشقة ، ولا يبقى معها للتعب باقية ، قال المتنبى :

تلـــــذ له المروءة وهــــى تؤذى ومـــن يعشق يلــــذ له الغــــرام

ولذة المروءة فى شعور النفس ببلوغها كمال الرجولية أو قربها منها ، وإذايتها لصاحبها بما أشرنا إليه من أن للمروءة تكاليف باهظة لاينهض بها إلا دو صبر متين . حتى قال أبو عبد الله الكاتب : «الصبر على حقوق المروءة أشد

من الصبر على ألم الحاجة» .

ذو المروءة حقيق بالإجلال :

إذا نظرنا فى تفاصيل الأخلاق والآداب التى تقوم المروءة على رعايتها وجدناها تبعث على إجلال صاحبها وامتلاء الأعين بمهابته . ومن الحكم السائرة : «ذو المروءة يكرم وإن كان معدماً ، كالأسد يهاب وإن كان رابضاً ، ومن لا مروءة له ، يهان وإن كان موسراً ، كالكلب يهان وإن طوق وحلى بالذهب» .

الغرض من هذا الحديث :

وقد رأينا كيف انتظمت المروءة أخلاقاً سنية ، وآداباً مضيئة ، وعرفنا أن رسوخ هذه الأخلاق والآداب فى النفس ، يحتاج إلى صبر ومجاهدة ودقة ملاحظة وسلامة ذوق ، فحقيق بنا أن نربى أبناءنا على رعايتها منذ عهد التمييز ، حتى لا تسبق إليهم أخلاق غير نقية ، وعادات غير رضية ، فتحول بينهم وبين الفضائل فلا تجد المروءة إلى نفوسهم مدخلا :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً   فمطلبها كهلا عليه عسير

نربى أبناءنا على مايثبت قواعد المروءة ، ويرفع بناءها ، ليحمدوا أبوتنا ، ويكونوا قرة أعين لنا ، وأسوة حسنة لأحفادنا ، وزينة لأوطاننا وليفوزوا بالعزة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

الرسالة السابعة

مدرسة المروءة

قلت لها : وعلى مشارف
النصف الثانى من القرن العشرين
تصبحين أيتها المروءة الشغل الشاغل لعملاقين
كبيرين من عمالقة الأدب فى مصر ، ويسجل التاريخ
ذلك الحوار بينهما حول مدرسة لك تسمى «مدرسة
المروءة» !! ويفيض خاطر الدكتور أحمد أمين ببرنامج
تلك المدرسة بناء على تكليف من الدكتور طه حسين
ومازال كتابه «فيض الخاطر» يحمل
هذه الرسالة !!

للدكتور أحمد أمين المتوفى عام ١٩٥٤

في مدرسة المروءة !

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عَوَّدَه أبوه

مدرسة المروءة

تكليف شاق عسير !

طلب إليَّ أخى الدكتور طه أن أضع له مشروعاً لمدرسة المروءة ، أبين فيه اختصاصها ومنهاجها وتبعيتها الخ . ولابد أن أنزل على حكمه ، لأنى دعوته فأجاب بل كثيرا مايجيب من غير أن أدعوه ، وكثيراً ما يلاحقنى فى مقالاتى واقتراحاتى ، فإهمال دعوته إذاً جريرة لاتغتفر ، ولأن الموضوع فى ذاته جد خطير ، فلو ظفرنا بهذه المدرسة لأخرجت كما قال لنا : «رجالا يرتفعون عن الصغائر كلها أشد الارتفاع ، ويتنزهون عن النقائص كلها أعظم التنزه» وأى شىء فى الوجود أنبل من هذه الغاية ، وأجدر منها بالقول ؟ .

بعض العقبات :

ولكن هذا التكليف شاق عسير ، صادفتنى فيه عقبات جمة أسرد لك بعضها :

أولها — ماالمروءة اىى نريد أن ننشىء لها مدرسة ؟

لقد تعب الناس قديماً وحديثاً فى تحديد معناها ، فلم يصلوا فيه إلى قول حاسم ، وهى فى كل عقل بمعنى ، فقد عرَّفها بعض اللغويين بأنها «كمال الرجولة» ولكنى لم أرتض هذا التعريف ، لأنه يريد أن يقصر المروءة على الرجل ، ومعاذ الله أن أوافقه على ذلك بعد أن أصبحت المرأة تخيفنا فى كل مانقول ، فإذا لم نقل مايرضيها غضبت ، وويل لنا إذا غضبت . وهناك آنسة وقفت لى بالمرصاد ، فكلما تحدثت حديثاً فى الراديو ، أو كتبت مقالا فى

مجلة ، كتبت إلى تعنفنى على اقتصارى على جانب الرجل ، أو الاكتفاء بضمائر الرجال ، أو استعمال جمع المذكر السالم دون جمع المؤنث السالم ، بل ولم ترض منى بجمع التكسير الذى يشمل الرجل والمرأة على السواء ؛ فكيف لو ارتضيت هذا التعريف فى المروءة ، وهو يقول إنه كمال الرجولة ولم يقل كمال الأنوثة ، مع أن كمال الأنوثة مروءة ككمال الرجولة ؟ وكأن صاحب «لسان العرب» خاف خوفى فأسرع وقال : إن «المروءة هى الإنسانية» ، فأرضى الرجل والمرأة ونجا بجلده .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : «خذ الناس بالعربيه ، فإنه يزيد فى العقل ويثبت المروءة» وسئل آخر عن المروءة فقال : «ألَّا تفعل فى السر ماتستحى منه فى العلانية» . وقال عبد الله بن عمر : «إنَّا معشر قريش لانعد الحلم والجود سؤدداً ، ونعد العفاف وإصلاح المال مروءة» ، وروى العتبى عن أبيه أنه قال : «لاتتم مروءة الرجل إلا بخمس : أن يكون عالماً صادقاً عاقلًا ذا بيان مستغنياً عن الناس» .

ولو عددت كل ماقيل فى تعريفها لضاق المجال ؛ وأنت أعلم به منى ، فأى الأقوال نختار ، وأى الآراء نؤسس عليه بناء المدرسة ؟ .

ولكن هذا الإشكال يمكن حله بأن نأخذ كل هذه التعاريف وغيرها ، ونمزجها وننخلها ونجعل منها خلاصة تكون برنامجنا ؛ وسنصل فى النهاية — فيما نظن — إلى تعريف أنها «كمال الإنسانية» .

ثم وقعت فى مشكلة أخرى ؛ ذلك أنى رأيت فى التاريخ حادثة خطيرة حدثت للمروءة ، وهى أن أهلها كلهم ماتوا فى زمن من الأزمان ، وأقامت المروءة عليهم الحداد ، ولبست السواد ، وأخذت تندبهم وتولول عليهم ، ومر بها شاعر وهى على هذا الحال فقال :

مررت على المروءة وهـى تبكـى ... فقلـت علامَ تنتـحب الفتـاة ؟
فقـالت كيـف لا أبكـى وأهلى ... جميعـاً دون خلـق الله ماتـوا؟

فقلت إذا كان أهل المروءة جميعاً قد ماتوا فكيف ننشىء مدرسة ، ومن أين نأتى بالمدرسين ؟ فإنهم إذا كانوا من أهل المروءة فقد كذبتْ المروءة فى أنهم

جميعاً ماتوا ، والكذب ينافى المروءة ، وإذا لم يكونوا من أهل المروءة فكيف يخلقون ذوى المروءات ، والشيء لا يُخْلَق من لاشيء ؟ وإخواتنا الأزهريون يقولون : **«فاقد الشيء لايعطيه»** ؛ وبعد جهد جهيد تغلبْتُ على هذه المشكلة بأن المروءة لم تكذب ، وإنما كذب الشاعر ؛ فهو لم ير المروءة بعينيه ، ولم يحدثها وتحدثه ، بدليل أن شاعراً آخر مثله وقبله قال :

إن السماحـــة والمروءة والنـــــدى فى قبـة ضربت على ابـن الـــحَشْرَج

ثم مات ابن الحشرج وسقطت قبته على من فيها ، ومع ذلك بقيت المروءة حتى لقيها الشاعر الثانى فيما يزعم .

إذًا فالمروءة بحمد الله موجودة لم يمت أهلها كلهم ولم تنتحب عليهم ، فنستطيع أن نجد لها معلمين من أهلها .

مدرسة من صِنْف آخر

ثم أود قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، أن تبعد من ذهنك الفكرة الشائعة فى المدرسة من أنها بناء ذو حجرات ومقاعد ، وحصص وأجراس ، وناظر ومفتش وفراش ؛ فقد أصبح هذا (الطقم) كله ثقيلا بغيضاً ، أخشى أن ينفر المروءة فتنتحب ثانية ، وقد بذلنا غير المعقول فى استرضائها وعودتها إلى الحياة .

● إنما أريدها مدرسة من صنف آخر ، على حد تعبيرنا أن «مجلة الثقافة» مدرسة ، وعلى حد تعبير إخواننا المستشرقين مدرسة الشافعية ومدرسة الحنفية ، أى دراسات المذهب الشافعى والمذهب الحنفى ، وكقولهم مدرسة المعتزلة ومدرسة الشيعة ، وهو تعبير طريف أظرف مافيه أنه ينجينا من كل مشاكل المدارس الأميرية والحرة ، وينجينا من وزارة المعارف بكل قيودها .

● أريدها مدرسة لها حدود أربعة هى بعينها حدود القطر المصرى شرقاً وغربا وشمالا وجنوباً .

مشكلة من نوع أعنف :

ولكن تأتى بعد ذلك مشكلة أعنف : كيف آتى بالمدرسين لكل هذا العدد ، وقد عجزت وزارة المعارف أن تأتى بمدرسين يسدون حاجتها ، مع أن عدد تلاميذ مدارسها لا يبلغ عشر معشار الأمة ، ومع أن لها العدد الوفير من مدارس معلمين ومعلمات ومعاهد تربية للبنين والبنات ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ووزارة المعارف ؟ .

نظرية جديدة وبسيطة :

خطر لى خاطر جرىء لست أدرى أترتضيه أم لا ترتضيه ! .

خلاصة هذا الخاطر تنبنى على «نظرية بسيطة» وهى :

أنه إذا صلح الرئيس صلح المرءوس ؛ وقياساً على هذه القاعدة إذا كان الرئيس ذا مروءة أصبح المرءوس ذا مروءة !

وبناء على ذلك أشكّل لجنة صغيرة من ذوى المروءات وأمنحهم اختصاصاً واسعاً جداً لا تقف فى سبيله ورارة المالية بقوانينها وقيودها التى تكتف كل حركة ، وأمنح هذه اللجنة الإرادة التى لا حدّ لها فى العزل والإحالة على المعاش ، وأجعلها تستقصى أحوال كل رؤساء المصالح والدواوين ، وكل المديرين والمأمورين ، وكل العمد ومشايخ البلاد ؛ فمن ثبت لها أنه أخل بالمروءة عزلته من غير هوادة ، وأحلت محله من عرف بالمروءة ، ونُبهت اللجنة إلى أن مقياس الكفاية للرياسة ليس العلم ، ولا الذكاء ، ولا الشهادة ، ولا المحسوبية ، ولا الحسب ولا النسب ، ولكن المروءة ؛ فإذا اجتمع علم ومروءة ، أو ذكاء ومروءة فذاك ، وإلا فالمروءة أولًا والمروءة وحدها .

إن فعلنا ذلك قلد المرءوسون الرئيس فى المروءة ، وقلد المأمورون المديرين ، وقلد العمد ومشايخ البلد المأمورين ، وقلد الفلاحون العمد والمشايخ ، وسرت فى البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها نوبة تسمى «نوبة المروءة» وبذلك أجعل من الرؤساء معلمين للمروءة يعلمون بالمثل لا بمجرد القول .

ثم أجعل للجنة المروءة هذه اختصاصاً واسعاً فى نشر ثقافه المروءة ؛ فأحاديث تدوِّى فى الراديو تصل إلى كل أذن تشيد بأعمال المروءة ، وروايات تمثل أعمال المروءة ، وكتب تؤلف فى لغة سهلة عذبة فى سير المروءات .

وشىء آخر لابد منه ، وهو تكوين رأى عام يتطلب المروءة ويقدرها ويقوِّمها ويكون شديد الحس بها ؛ فهو يجلّ من أتى بأعمال المروءة ومن اتصف بها ، وهو يحتقر أشد الاحتقار من حاد عنها وارتكب مايخل بشرفها ، مهما كان غنيا ، ومهما كان وجيهاً ، ومهما كان ذا سلطان ، لا كرأينا العام الذى لا يعبأ بالمروءة كما يعبأ بالمنصب ، والذى لا يعبأ بالنبل كما يعبأ بالمال ، والذى إن احتقر أعمال اللؤم ، ففى سره وفى خاصته ، ثم هو حريص كل الحرص على ألا يشعر باحتقاره اللئيم المجرم ، ولا أن يصل إلى سمعه شىء من أقواله فى احتقاره ، فهو يبطن الكره ويظهر الحب ، ويبطن الاحتقار ويظهر الإجلال .

شأن المرأة فى هذا البرنامج :

ولأعدْ سريعاً إلى المرأة خوفا من الآنسة ؛ فماذا يكون شأن المرأة فى هذ البرنامج ؟ فى هذه المسألة قولان — قول يقول : إذا مَرُؤ الرجل مَرُؤت المرأة ؛ فإذا أعددنا برنامجاً لمروءة الرجل ، استتبع ذلك مروءة المرأة ؛ ولكن المرأة ترفض هذا القول بتاتاً ، وترى أنه ماس بكرامتها ، وتصر على أنه إذا مَرُؤَت المرأة مَرؤ الرجل ؛ لأنها هى التى ترضع الجيل الجديد المروءة ، ولأنها لا ترضى أن تكون تبعاً ، فهذه عقلية القرون الوسطى .

إن كان ذلك كذلك ، فلْنَتْرك برنامج مروءة المرأة للمرأة تضعه هى مادامت لا تقبل قول الرجل ، فذلك أقرب إلى العدل .

إن تم ذلك — ياأخى — امحى من مصر كل ماتشكو منه من صداقة تستغل الصديق ولا تفى للصديق ، وتقابل جميلًا بنكران ، وإحساناً بإساءة ، وامحَى من الوجود رئيس يتخذ الرياسة وسيلة لإرضاء شهوته ، ويستطيل على الناس بجبروته وسطوته ، ورأيتهم وكأنهم أُنْشِئُوا خلْقاً آخر : يتبارون فى المروءة ، ويفخرون بأعمال المروءة . والحكومة ترقيهم حسب ماأتوا من أعمال

المر وءة ، وماظهر منهم من نبل وشرف وكرم نفس ومروءة . وحن إن لم نصل إلى هذا كله دفعة واحدة ، ففي بعضه رِضى لى ورِضى لك . وحسْبنا أن يسير الناس إلى الغاية ، وإن لم يبلغوا الغاية .

تسألنى بعد ذلك : لمن تتبعها ؟ ألوزارة الشئون الاجتماعية ؟ أم لوزارة المعارف العمومية ؟ وأظنك بعد أن تقرأ إجابتى لا ترى معنى لهذا السؤال ، فلقد جعلْتُ وزارة المعارف ووزارة الشئون الاجتماعية وغيرها من الوزارات تبعاً لمدرستى ، فكيف أتبع مدرستى لإحداهما وأنت تعلم أن الدور فى الفلسفة محال ؟

هذا — ياأخى — ماخطر لى اليوم فى اقتراحك ، وهو كما ترى مملوء بالأشواك . فإن ظهر لى جديد ، اتّبعت خطة وزارة المعارف فى تعديل المناهج . والسلام .

حوار حول العودة !!

هل ..

آن للغريب أن يرى حماه ؟!! .

وهل ..

آن للغائب أن يعود إلى أهله وذوى قرباه ؟!

وهل ..

آن لنا أن نراعى فى أبنائنا وبناتنا

الله ؟!!

قالت ..

بعد أن راحت تعيد قراءة «رسائل الشوق إليها» واحدة بعد أخرى . أخذت تكفكف دموعها على أهلها وقد طال عليهم بكاؤها معتقدة أنهم دون خلق الله ماتوا !! .

ثم استجمعت شتاتها وقالت وقد تعرفت عليّ وأنِسِتْ إليّ :

ألست واحدا ممن كانوا قد تعلقوا بى فى صباهم وعاشوا شيخوختهم بعد أن غبت عنكم وطالت غيبتى ؟!!

ألست القائم بدور : «ساعى البريد» جئت تحمل فى جعبتك رسائل المحبين وقد تجمعت فى صندوقك من بلاد الله .. خلق الله ؟!

ألست واسطة خير ، وهمزة وصل ، وابتسامة أمل ، وكلمة حق ، وسفير قومك إلى ؟!

ألست واحداً من أهلى وناسى ممن طال بهم الحنين والشوق ؟!! أهلا بك وسهلا ..

قلت : بل أهلا بك أنت وسهلا ومرحبا فى بلادك بلاد الإسلام والمسلمين فهناك الكثيرون ممن صفت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم يسعدهم أن تعودى إلى ديارهم وبيوتهم ومدارسهم ومعاهدهم وأنديتهم ، ومجمعاتهم ، وشوارعهم ، ومصانعهم وحقولهم وشتى مرافقهم ودواوينهم ودور نشرهم ووسائل إعلامهم !

قالت : ومن يضمن لى أن أجد صداى فى سلوكهم وحياتهم ؟ وما جدوى عودتى إذا كنت تبنى وغيرُك يهدم ؟!

إن أرادوا عودتى حقا فلا بُدَّ من إعادة تشكيل عقولكم ونفوسكم من جديد كى تَصْلحوا لى وأصلح لكم !!

إن كانوا جادين حقا فعليهم أن يغيروا مابأنفسهم ؛ **﴿إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾**(١٤٣).

قلت لها : لن ينقطع فينا الأمل والرجاء !!

وإن هناك لمن يتلفتون حولهم .. يبحثون عنك .. ويودون مخلصين أن يتعرفوا عليك لتشرق شمسك من جديد على حياتهم ، وحياة أبنائهم وبناتهم بعد أن أصبحوا حيارى تائهين فى دروب الحياة !!

والأمل كبير أن تجدى فيهم أهلا .. وإخوة وآباء .. حتى يلتئم شمل الأسرة ، وترفرف على سمائها أعلامك من جديد !

وكما حمل لواءك المثل الأعلى للمروءة ﷺ .. وصحابته الأخيار فسوف يحمله فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى .. سوف تحمله الشبيبة المسلمة لتشرق شمسك من جديد على بلاد الإسلام !!

قالت : هل أعدد تم فيما بينكم ميثاقا تلتزمون فيه برعايتى فى أقوالكم وأفعالكم وحياتكم اليومية ؟!

هل لدى كل منكم استعداد ليصبح سلوكه تطبيقا عمليا وترجمة فعلية لما تضمنته هذا الرسائل التى أتيتنى بها وقد كُتِبَتْ لكم عنى ، ولم تكتب لى ؟ إنكم أولى بها منى ، وفيها مايزيدكم معرفة بى .. إننى أعرف نفسى .. لكنكم أصبحتم لاتعرفونى !!

سائلوا الآباء والمعلمين وولاة الأمور ومن هم فى موضع القدوة هل لديهم استعداد حقيقى أن يكونوا لأبنائهم النموذج والقدوة والمثل ، فلا تقع أعين الناشئين منهم على قبيح ، ولا يشَمُّون من سلوكهم إلا أطيب ريح ؟!

---

(١٤٣) الرعد : ١١

وأخيرا هل هناك رأى عام يتخذ من «فاقدى المروءة» موقفا موحدا ويضعهم فى قائمة سوداء !!

هل فكرتم يوما أن تقاطعوا «إنتاجهم» ؟!

هل فكرتم يوماً أن لا تتعاملوا معهم ؟!

ويْحَكُم !! تجعلون منهم نجوم المجتمع .. تسلطون عليهم الأضواء فى صحفكم وإذاعاتكم ؟!!

أليس فى كل «مصلحة» رجل رشيد يجعل رأس الأسس التى يتم بناء عليها الاختيار والترقى لتولى الأعمال مقياس المروءة ، ويتم التأكد قبل الاختيار : أهو أهل للمروءة ، فيستعان به ، ويقرب . أم هو فاقد للمروءة ، فيصرف النظر عنه ، ويستبعد !! .

أما ينبغى أن تميزوا بينهما بعد أن اختلط الحابل بالنابل ، وضاع الحق ... وأصبح أهلى فى ديارهم غرباء ؟!

لقد أعجبنى فى رسائلك قول عالمكم «أحمد أمين» .

إذا صلح الرئيس صلح المرءوس ؛ فإذا كان الرئيس ذا مروءة أصبح المرءوس ذا مروءة .

ألديكم استعداد أن تعزلوا من أَخَلّ بالمروءة وتولوا بدلا منه من عُرف بالمروءة ؟

قلت لها : كفى ماكان .. وما وصلت إليه حال البلاد .. فلقد وعينا الدرس جيدا بعد أن فقدنا الوعى سنين !!

قالت : ومن عاد فينتقم الله منه !!

قلت : لن نعود !!

قالت : على بركة الله !!

هيا بشّر قومك بقدومى ..

قلت لها ألا يرضيك :

● أن نتبادل دراسة تلك الرسائل فى بلاد الإسلام والمسلمين تهيئة للعودة ؟!

ألا يرضيك :

● أن نخصص لك بعض الوقت فى إذاعاتنا وصحفنا ومدارسنا ومعاهدنا ومجلاتنا حتى يميز الناس الخبيث من الطيب .

ألا يرضيك :

● أن يكون اللقاء الأسبوعى بين الآباء والأبناء على شرف المروءة ، وأن يعطى الآباء والمربون المثل والقدوة ؟

ألا يرضيك :

● أن تسلط الأضواء على المظاهر السلبية ليعرف الجميع «من هو فاقد المروءة» ويتخذوا منه موقفا موحداً .

ألا يرضيك :

● أن تكون «المثالية» بين «الآباء» و «الأمهات» و «الطلبة» و «المعلمين» و«الموظفين» من أصحاب المروءة ؟!!

ألا يرضيك :

● أن تكون الحوافز .. والترقية بالاختيار قائمة على المروءة .

قالت : أفلح إن صدق !!

قلت : ومالنا لانصدق وليس فينا من لايتلفت حوله قائلا : أين المروء ؟

ومالنا لا نصدق وقد أصبحت حياتنا فى غيبتك عذابا لا يطاق .. فقد قست قلوبنا ، وفسدت ضمائرنا ، وتمزقت روابطنا ، وانحلت عُرَا المودة والمحبة بينا ، وتعالى صوتنا : النجدة النجدة .. الإنقاذ الإنقاذ !!

لقد أصبح محتما أن تعودى من جديد لنعيد فى داخلنا بناء الإسلام الذى تهدم ، والإنسان الذى تحطم !!

نعم أصبح لازما أن تعودى لتعود معك الرجولة والشهامة والنجدة ، ويصبح التعاون على البر والتقوى سِمَةً من سماتنا .. أصبح لازما أن تعودى إلى شوارعنا ومعاهدنا ومدارسنا وجامعاتنا وأسواقنا ، وشركاتنا ، ومقار أعمالنا ، حتى تنطلق مسيرتنا ، وترتفع رايتنا ، ويكلل الله مسعانا بالنجاح والفوز .. ومن يدرى .

فمـــا بين طرفـــة عين وانتبـــاهتها يغير الله من حالٍ إلى حالِ

قالت والفرحة تغمرها مما تسمع :

خذنى معك .. إنى راحلة إليكم

قلت وأنا أردد بيتين لشاعر النيل بين يديها :

إنى لتطربنـــــــــى الخلال كريمة طرب الغريب بأوبة وتـلاقِ
وتهزنى ذكـــرى المروءة والنـــدى بين الشمائـــــل هزة المشتـــاقِ

لقد آن للغريب أن يرى حماه !!

قالت : ويعود إلى ذوى قرباه ، هيا بشِّر قومك بقدومى .

قلت : وافرحتاه !! إنهم سيكونون جميعاً فى شرف استقبالك وكلهم يردد :

دارنـــــا ترقص مما شفَّهـــــا من سرور حيث وافاهـــا البـــشير
لو أتيـــح النطـــق منها نطـــقت وتجلَّـــى قولها : عاش الـــبشير
ما اجتماع الشمـــــل فى آفاقهـــا غير حب جاء عن وحـــى الضمير
انظرونـــا نقتـــــبس من نوركم واحفظونـــا نجبر العظـــم الـــكسير

قالت : ذاك والله على كثير !!

قال رفيقى على الطريق :

هنيئاً لمجتمع تملئين عليه حياته ، وتشرق عليه شمسك من جديد !

فهرس الكتاب

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٨٨/ ١٩٨٦

الترقيم الدولي ٩- ٥٤ -٠- ١٣٤ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ النشاطى - شبرا مصر